مَوْقِعُ جَامِعَةِ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ

www.menhag-un.com

يُقَدِّمُ:

(الْمُحَاضَرَة الْعَاشِرَة)

مِنْ مَادَّةِ آدَابِ الْعِلْمِ وَآفَاتِهِ

[آفَات الْعِلْمِ]

الْمُحَاضَرَة الرَّابِعَة

www.menhag-un.com

جامعة
منهاج النبوة
www.menhag-un.com

٥- إِذْلَالُ أَهْلِ الْعِلْمِ لِلْعِلْمِ

لَقَدْ قَعَّدَ السَّلَفُ -رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ- قَاعِدَةً مِنَ الْقَوَاعِدِ الْجَامِعَةِ، فَقَالُوا: «الْعِلْمُ يُؤْتَىٰ إِلَيْهِ، وَلَا يَأْتِي إِلَىٰ أَحَدٍ».

لَمَّا قَدِمَ هَارُونُ الرَّشِيدُ -أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ- بَعَثَ إِلَىٰ مَالِكٍ فَلَمْ يَأْتِهِ، فَقَالَ لَهُ أَبُو يُوسُفَ: يَبْلُغُ أَهْلَ الْعِرَاقِ أَنَّكَ بَعَثْتَ إِلَىٰ مَالِكٍ فَلَمْ يَأْتِكَ، ابْعَثْ إِلَيْهِ مَنْ يَأْتِيكَ بِهِ كَرْهًا، فَبَعَثَ إِلَيْهِ الرَّشِيدُ مَرَّةً ثَانِيَةً، فَأَتَاهُ مَالِكٌ، فَقَالَ لَهُ الرَّشِيدُ: يَا بْنَ أَبِي عَامِرٍ، أَبْعَثُ إِلَيْكَ فَتُخَالِفُنِي! فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَخْبَرَنِي الزُّهْرِيُّ عَنْ خَارِجَةَ بْنِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: كُنْتُ أَكْتُبُ الْوَحْيَ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَنَزَلَتْ: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ٩٥]. وَابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي رَجُلٌ ضَرِيرٌ، وَقَدْ أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ فِي فَضْلِ الْجِهَادِ مَا قَدْ عَلِمْتَ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا أَدْرِي**». وَقَلَمِي رَطْبٌ مَا جَفَّ، حَتَّىٰ وَقَعَ فَخِذُ النَّبِيِّ ﷺ عَلَىٰ فَخِذِي، فَثَقُلَتْ عَلَيَّ حَتَّىٰ خِفْتُ أَنْ تُرَضَّ فَخِذِي، ثُمَّ سُرِّيَ عَنْهُ، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾[1]. يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، حَرْفٌ وَاحِدٌ بُعِثَ

(١) الْبُخَارِيُّ (٢٦٧٧)، وَمُسْلِمٌ (١٨٩٨). وَتُرَضَّ: تُدَقَّ.

www.menhaj-un.com

بُعِثَ بِهِ جِبْرِيلُ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ مَسِيرَةِ خَمْسَةِ آلَافِ عَامٍ، أَلَا يَنْبَغِي أَنْ أُعِزَّهُ وَأُجِلَّهُ؟!

إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ رَفَعَكَ وَجَعَلَكَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ بِعِلْمِكَ، فَلَا تَكُنْ أَوَّلَ مَنْ يَضَعُ عِزَّ الْعِلْمِ فَيَضَعُ اللهُ عِزَّكَ.

فَقَالَ لَهُ الرَّشِيدُ: تَأْتِينَا حَتَّىٰ نَتَعَلَّمَ عَلَيْكَ وَنَسْمَعَ مِنْكَ.

قَالَ: أَصْلَحَكَ اللهُ، **إِنَّ الْعِلْمَ يُؤْتَىٰ إِلَيْهِ وَلَا يَأْتِي**. قَالَ: نَأْتِي وَتَمْنَعُ النَّاسَ حَتَّىٰ نَنْصَرِفَ. قَالَ: **إِذَا مُنِعَ الْعِلْمُ مِنَ الْعَامَّةِ لَمْ يَنْفَعِ اللهُ بِهِ الْخَاصَّةَ وَلَا الْعَامَّةَ**.

قَالَ لَهُ: فَتَقْرَأُ عَلَيَّ إِذَا أَتَيْتَ. قَالَ لَهُ: مَا قَرَأْتُ عَلَىٰ أَحَدٍ مُنْذُ كَذَا وَكَذَا، وَلَا أَقْرَأُ عَلَىٰ أَحَدٍ بَعْدَ ذَلِكَ. قَالَ: فَتَجْعَلُ مَنْ يَقْرَأُ وَنَحْنُ نَسْمَعُ. قَالَ: ذَلِكَ لَكَ.

فَذَهَبَ الرَّشِيدُ إِلَىٰ مَنْزِلِ مَالِكٍ، وَأَجْلَسَ مَالِكًا عَلَىٰ الْمِنَصَّةِ الَّتِي يَجْلِسُ عَلَيْهَا حَتَّىٰ يَسْمَعَ الْحَدِيثَ، فَقَالَ لَهُ مَالِكٌ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، مَا أَدْرَكْتُ أَهْلَ بَلَدِنَا إِلَّا وَهُمْ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَوَاضَعُوا لِلَّهِ، فَنَزَلَ الرَّشِيدُ عَنِ الْمِنَصَّةِ، وَجَلَسَ بَيْنَ يَدَيْ مَالِكٍ رَحِمَهُ اللهُ؛ تَوَاضُعًا لِعِلْمِهِ وَانْقِيَادًا لِقَوْلِهِ.

وَهَكَذَا ذَهَبَ الرَّشِيدُ إِلَىٰ مَنْزِلِ مَالِكٍ، وَتَعَلَّمَ مِنْهُ، وَسَمِعَ عَلَيْهِ، وَكَانَ الْقَارِئُ مَعْنَ بْنَ عِيسَىٰ الْفَزَارِيَّ(١).

www.menhag-un.com

(١) انْظُرِ: «الْإِمَامُ مَالِكٌ» لِلدُّكْتُور مَحْمُود عَبْد الْمُتَجَلِّي خَلِيفَة (ص٥٠).

مَا كَانَتْ طَائِفَةٌ مِنْ طَوَائِفِ الْأُمَّةِ أَعَزَّ مِنَ الْعُلَمَاءِ يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ، الْمُلُوكُ حُكَّامٌ عَلَىٰ النَّاسِ، وَالْعُلَمَاءُ حُكَّامٌ عَلَىٰ الْمُلُوكِ، وَكَيْفَ لَا وَعِنْدَهُمْ مِيرَاثُ النُّبُوَّةِ، وَسَبَبُهُمْ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ وَثِيقٌ مَتِينٌ؟!

أَخْرَجَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ بِسَنَدِهِ عَنْ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: «كَانَ خِيَارُ النَّاسِ وَأَشْرَافُهُمْ وَالْمَنْظُورُ إِلَيْهِمْ فِي الدِّينِ، الَّذِينَ يَقُومُونَ إِلَىٰ هَؤُلَاءِ -يَعْنِي: وُلَاةَ أُمُورِهِمْ- فَيَأْمُرُونَهُمْ وَيَنْهَوْنَهُمْ، وَكَانَ آخَرُونَ يَلْزَمُونَ بُيُوتَهُمْ لَيْسَ عِنْدَهُمْ ذَلِكَ، وَكَانَ لَا يُنْتَفَعُ بِهِمْ وَلَا يُذْكَرُونَ، ثُمَّ بَقِينَا حَتَّىٰ صَارَ الَّذِينَ يَأْتُونَهُمْ فَيَأْمُرُونَهُمْ شِرَارَ النَّاسِ، وَالَّذِينَ لَزِمُوا بُيُوتَهُمْ وَلَمْ يَأْتُوهُمْ خِيَارَ النَّاسِ»[1].

وَمَعْلُومٌ أَنَّ كُلَّ فَضِيلَةٍ إِنَّمَا هِيَ وَسَطٌ بَيْنَ رَذِيلَتَيْنِ، وَإِعْزَازُ الْعِلْمِ وَسَطٌ بَيْنَ إِذْلَالِهِ وَالتَّجَبُّرِ بِهِ.

وَقَدْ تَشْتَبِهُ الْمَهَانَةُ بِالتَّوَاضُعِ، وَالْمَذَلَّةُ بِالْخُشُوعِ، كَمَا قَدْ يَشْتَبِهُ التَّكَبُّرُ بِالصِّيَانَةِ وَالتَّجَبُّرُ بِالْإِبَاءِ، فَاحْتَاجَ الْأَمْرُ إِلَىٰ بَيَانٍ وَتَوْضِيحٍ.

*** الْفَرْقُ بَيْنَ التَّوَاضُعِ وَالْمَهَانَةِ:**

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الْفَرْقُ بَيْنَ التَّوَاضُعِ وَالْمَهَانَةِ: أَنَّ التَّوَاضُعَ يَتَوَلَّدُ مِنْ بَيْنِ الْعِلْمِ بِاللهِ سُبْحَانَهُ وَمَعْرِفَةِ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَنُعُوتِ جَلَالِهِ وَتَعْظِيمِهِ وَمَحَبَّتِهِ وَإِجْلَالِهِ، وَمِنْ مَعْرِفَتِهِ بِنَفْسِهِ وَتَفَاصِيلِهَا وَعُيُوبِ عَمَلِهَا وَآفَاتِهَا، فَيَتَوَلَّدُ مِنْ بَيْنِ ذَلِكَ كُلِّهِ خُلُقٌ هُوَ التَّوَاضُعُ.

---

(١) «جَامِعُ بَيَانِ الْعِلْمِ» (١/ ١٨٤).

وَهُوَ: انْكِسَارُ الْقَلْبِ لِلَّهِ، وَخَفْضُ جَنَاحِ الذُّلِّ وَالرَّحْمَةِ بِعِبَادِهِ، فَلَا يَرَىٰ لَهُ عَلَىٰ أَحَدٍ فَضْلًا، وَلَا يَرَىٰ لَهُ عِنْدَ أَحَدٍ حَقًّا، بَلْ يَرَىٰ الْفَضْلَ لِلنَّاسِ عَلَيْهِ، وَالْحُقُوقَ لَهُمْ قِبَلَهُ، وَهَذَا خُلُقٌ إِنَّمَا يُعْطِيهِ اللهُ ﷻ مَنْ يُحِبُّهُ وَيُكْرِمُهُ وَيُقَرِّبُهُ.

وَأَمَّا الْمَهَانَةُ: فَهِيَ الدَّنَاءَةُ وَالْخِسَّةُ، وَبَذْلُ النَّفْسِ وَابْتِذَالُهَا فِي نَيْلِ حُظُوظِهَا وَشَهَوَاتِهَا، كَتَوَاضُعِ السُّفَّلِ فِي نَيْلِ شَهَوَاتِهِمْ، وَتَوَاضُعِ الْمَفْعُولِ بِهِ لِلْفَاعِلِ، وَتَوَاضُعِ طَالِبِ كُلِّ حَظٍّ لِمَنْ يَرْجُو نَيْلَ حَظِّهِ مِنْهُ، فَهَذَا كُلُّهُ ضَعَةٌ لَا تَوَاضُعٌ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ يُحِبُّ التَّوَاضُعَ وَيُبْغِضُ الضَّعَةَ وَالْمَهَانَةَ.

وَفِي «الصَّحِيحِ» عَنْهُ ﷺ: «**وَأُوحِيَ إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّىٰ لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَىٰ أَحَدٍ، وَلَا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَىٰ أَحَدٍ**»(١).

*** وَالتَّوَاضُعُ الْمَحْمُودُ عَلَىٰ نَوْعَيْنِ:**

النَّوْعُ الْأَوَّلُ: تَوَاضُعُ الْعَبْدِ عِنْدَ أَمْرِ اللهِ امْتِثَالًا وَعِنْدَ نَهْيِهِ اجْتِنَابًا، فَإِنَّ النَّفْسَ لِطَلَبِ الرَّاحَةِ تَتَلَكَّأُ فِي أَمْرِهِ، فَيَبْدُو مِنْهَا نَوْعُ إِبَاءٍ وَشِرَادٍ هَرَبًا مِنَ الْعُبُودِيَّةِ، وَتَثْبُتُ عِنْدَ نَهْيِهِ طَلَبًا لِلظَّفَرِ بِمَا مَنَعَ مِنْهُ، فَإِذَا وَضَعَ الْعَبْدُ نَفْسَهُ لِأَمْرِ اللهِ وَنَهْيِهِ فَقَدْ تَوَاضَعَ لِلْعُبُودِيَّةِ

وَالنَّوْعُ الثَّانِي: تَوَاضُعُهُ لِعَظَمَةِ الرَّبِّ وَجَلَالِهِ، وَخُضُوعُهُ لِعِزَّتِهِ وَكِبْرِيَائِهِ، فَكُلَّمَا شَمَخَتْ نَفْسُهُ ذَكَرَ عَظَمَةَ الرَّبِّ تَعَالَىٰ وَتَفَرُّدَهُ بِذَلِكَ وَغَضَبَهُ الشَّدِيدَ عَلَىٰ

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٨٦٥).

مَنْ نَازَعَهُ ذَلِكَ، فَتَوَاضَعَتْ إِلَيْهِ نَفْسُهُ، وَانْكَسَرَ لِعَظَمَةِ اللهِ قَلْبُهُ، وَاطْمَأَنَّ لِهَيْبَتِهِ، وَأَخْبَتَ لِسُلْطَانِهِ، فَهَذَا غَايَةُ التَّوَاضُعِ، وَهُوَ يَسْتَلْزِمُ الْأَوَّلَ مِنْ غَيْرِ عَكْسٍ، وَالْمُتَوَاضِعُ حَقِيقَةً مَنْ رُزِقَ الْأَمْرَيْنِ»(١).

وَلَيْسَ أَدَلَّ عَلَىٰ عِزِّ الْعِلْمِ وَنُفُورِ الْعُلَمَاءِ مِنْ إِذْلَالِهِ مِنْ مِحْنَةِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ اللهُ.

فَإِنَّ الْمُسْلِمِينَ مَا زَالُوا عَلَىٰ قَانُونِ السَّلَفِ مِنْ أَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللهِ تَعَالَىٰ وَوَحْيُهُ وَتَنْزِيلُهُ غَيْرُ مَخْلُوقٍ، حَتَّىٰ نَبَغَتِ الْمُعْتَزِلَةُ وَالْجَهْمِيَّةُ، فَقَالُوا فِي صِفَاتِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مَا قَالُوا، وَقِيلَ بِخَلْقِ الْقُرْآنِ، وَلَكِنْ مَقَالَةٌ تَحْتَ سِتْرٍ مَا دَامَتْ دَوْلَةُ الرَّشِيدِ.

وَقَدْ كَانَ الرَّشِيدُ رَحِمَهُ اللهُ عِنْدَمَا بَلَغَهُ أَنَّ بِشْرَ بْنَ غِيَاثٍ يَقُولُ: الْقُرْآنُ مَخْلُوقٌ، قَالَ: لِلَّهِ عَلَيَّ إِنْ أَظْفَرَنِي بِهِ أَقْتُلَنَّهُ، فَكَانَ بِشْرٌ مُتَوَارِيًا أَيَّامَ الرَّشِيدِ، فَلَمَّا مَاتَ ظَهَرَ بِشْرٌ وَدَعَا إِلَىٰ الضَّلَالَةِ.

قَالَ الذَّهَبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «ثُمَّ إِنَّ الْمَأْمُونَ نَظَرَ فِي الْكَلَامِ، وَبَاعَثَ الْمُعْتَزِلَةَ، وَبَقِيَ يُقَدِّمُ رِجْلًا وَيُؤَخِّرُ أُخْرَىٰ فِي دُعَاءِ النَّاسِ إِلَىٰ الْقَوْلِ بِخَلْقِ الْقُرْآنِ، إِلَىٰ أَنْ قَوِيَ عَزْمُهُ عَلَىٰ ذَلِكَ فِي السَّنَةِ الَّتِي مَاتَ فِيهَا.

---

(١) «الرُّوحُ» لِابْنِ الْقَيِّمِ (ص٣١٣).

قَالَ صَالِحُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ: حُمِلَ أَبِي، وَمُحَمَّدُ بْنُ نُوحٍ مُقَيَّدَيْنِ، فَصِرْنَا مَعَهُمَا إِلَىٰ الْأَنْبَارِ، فَسَأَلَ أَبُو بَكْرٍ الْأَحْوَلُ أَبِي فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، إِنْ عُرِضْتَ عَلَىٰ السَّيْفِ تُجِيبُ؟

قَالَ: لَا.

ثُمَّ سُيِّرَا، فَسَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ: صِرْنَا إِلَىٰ الرَّحْبَةِ وَدَخَلْنَا فِيهَا، وَذَلِكَ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ، فَعَرَضَ لَنَا رَجُلٌ فَقَالَ: أَيُّكُمْ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ؟ فَقِيلَ لَهُ: هَذَا.

فَقَالَ لِلْجَمَّالِ: عَلَىٰ رِسْلِكَ. ثُمَّ قَالَ: يَا هَذَا، مَا عَلَيْكَ أَنْ تُقْتَلَ هَاهُنَا وَتُدْخَلَ الْجَنَّةَ. ثُمَّ قَالَ: أَسْتَوْدِعُكَ اللهَ، وَمَضَىٰ.

فَسَأَلْتُ عَنْهُ، فَقِيلَ لِي: هَذَا رَجُلٌ مِنَ الْعَرَبِ مِنْ رَبِيعَةَ يَعْمَلُ الشِّعْرَ فِي الْبَادِيَةِ، يُقَالُ لَهُ جَابِرُ بْنُ عَامِرٍ، يُذْكَرُ بِخَيْرٍ.

يَقُولُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللهُ: مَا سَمِعْتُ كَلِمَةً مُنْذُ وَقَعْتُ فِي هَذَا الْأَمْرِ أَقْوَىٰ مِنْ كَلِمَةِ أَعْرَابِيٍّ كَلَّمَنِي بِهَا فِي رَحْبَةِ طَوْقٍ، قَالَ: يَا أَحْمَدُ، إِنْ يَقْتُلْكَ الْحَقُّ مِتَّ شَهِيدًا، وَإِنْ عِشْتَ، عِشْتَ حَمِيدًا فَقَوِيَ قَلْبِي.

وَثَبَتَ مُحَمَّدُ بْنُ نُوحٍ رَحِمَهُ اللهُ مَعَ أَحْمَدَ ثَبَاتًا عَظِيمًا، يَقُولُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللهُ: مَا رَأَيْتُ أَحَدًا عَلَىٰ حَدَاثَةِ سِنِّهِ وَقَدْرِ عِلْمِهِ أَقْوَمَ بِأَمْرِ اللهِ مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ نُوحٍ. وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ قَدْ خُتِمَ لَهُ بِخَيْرٍ. قَالَ لِي ذَاتَ يَوْمٍ: يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، اللهُ، اللهُ، إِنَّكَ

لَسْتَ مِثْلِي، أَنْتَ رَجُلٌ يُقْتَدَىٰ بِكَ، قَدْ مَدَّ الْخَلْقُ أَعْنَاقَهُمْ إِلَيْكَ لِمَا يَكُونُ مِنْكَ. فَاتَّقِ اللهَ وَاثْبُتْ لِأَمْرِ اللهِ. أَوْ نَحْوَ هَذَا، فَمَاتَ وَصَلَّيْتُ عَلَيْهِ وَدَفَنْتُهُ.

وَمَكَثَ أَحْمَدُ فِي السِّجْنِ نَحْوًا مِنْ ثَلَاثِينَ شَهْرًا، ثُمَّ دُعِيَ بَيْنَ يَدَيِ الْمُعْتَصِمِ، قَالَ صَالِحُ بْنُ أَحْمَدَ: فَجَعَلَ أَحْمَدُ بْنُ أَبِي دُؤَادٍ يَنْظُرُ إِلَىٰ أَبِي كَالْمُغْضَبِ، قَالَ أَبِي: وَكَانَ هَذَا يَتَكَلَّمُ فَأَرُدُّ عَلَيْهِ، وَيَتَكَلَّمُ هَذَا فَأَرُدُّ عَلَيْهِ، فَإِذَا انْقَطَعَ الرَّجُلُ مِنْهُمُ اعْتَرَضَ ابْنُ أَبِي دُؤَادٍ فَيَقُولُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، هُوَ وَاللهِ ضَالٌّ مُبْتَدِعٌ! فَيَقُولُ: كَلِّمُوهُ، نَاظِرُوهُ. فَيُكَلِّمُنِي هَذَا فَأَرُدُّ عَلَيْهِ، وَيُكَلِّمُنِي هَذَا فَأَرُدُّ عَلَيْهِ، فَإِذَا انْقَطَعُوا يَقُولُ لِيَ الْمُعْتَصِمُ: وَيْحَكَ يَا أَحْمَدُ، مَا تَقُولُ؟ فَأَقُولُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَعْطُونِي شَيْئًا مِنْ كِتَابِ اللهِ أَوْ سُنَّةِ رَسُولِ اللهِ حَتَّىٰ أَقُولَ بِهِ.

وَيُقْبِلُ ابْنُ أَبِي دُؤَادٍ عَلَىٰ أَحْمَدَ وَيُكَلِّمُهُ، فَلَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ، حَتَّىٰ يَقُولَ الْمُعْتَصِمُ: يَا أَحْمَدُ، أَلَا تُكَلِّمُ أَبَا عَبْدِ اللهِ -يَقْصِدُ ابْنَ أَبِي دُؤَادٍ-؟ فَيَقُولُ أَحْمَدُ: لَسْتُ أَعْرِفُهُ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ فَأُكَلِّمُهُ!

يَقُولُ ابْنُ أَبِي دُؤَادٍ لِلْمُعْتَصِمِ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنْ أَجَابَكَ لَهُوَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ مِئَةِ أَلْفِ دِينَارٍ وَمِئَةِ أَلْفِ دِينَارٍ.

فَيَعُدُّ مِنْ ذَلِكَ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَعُدَّ.

فَقَالَ: لَئِنْ أَجَابَنِي لَأُطْلِقَنَّ عَنْهُ بِيَدِي، وَلَأَرْكَبَنَّ إِلَيْهِ بِجُنْدِي، وَلَأَطَأَنَّ عَقِبَهُ.

ثُمَّ قَالَ: يَا أَحْمَدُ وَاللهِ إِنِّي عَلَيْكَ لَشَفِيقٌ، وَإِنِّي لَأُشْفِقُ عَلَيْكَ كَشَفَقَتِي عَلَىٰ ابْنِي هَارُونَ، مَا تَقُولُ؟ فَأَقُولُ: أَعْطُونِي شَيْئًا مِنْ كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ.

وَأَمَرَ الْمُعْتَصِمُ بِضَرْبِ الْإِمَامِ، فَقُدِّمَ فَضُرِبَ تِسْعَةَ عَشَرَ سَوْطًا، قَالَ أَحْمَدُ: فَلَمَّا ضُرِبْتُ تِسْعَةَ عَشَرَ سَوْطًا قَامَ إِلَيَّ -يَعْنِي الْمُعْتَصِمَ- وَقَالَ: يَا أَحْمَدُ، عَلَامَ تَقْتُلُ نَفْسَكَ؟ إِنِّي وَاللهِ عَلَيْكَ لَشَفِيقٌ. قَالَ: فَجَعَلَ عَجِيفٌ يَنْخَسُنِي بِقَائِمَةِ سَيْفِهِ، وَقَالَ: أَتُرِيدُ أَنْ تَغْلِبَ هَؤُلَاءِ كُلَّهُمْ؟ وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَقُولُ: وَيْلَكَ، الْخَلِيفَةُ عَلَىٰ رَأْسِكَ قَائِمٌ! وَقَالَ بَعْضُهُمْ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، دَمُهُ فِي عُنُقِي، اقْتُلْهُ!

وَجَعَلُوا يَقُولُونَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَنْتَ صَائِمٌ، وَأَنْتَ فِي الشَّمْسِ قَائِمٌ! فَقَالَ لِي: وَيْحَكَ يَا أَحْمَدُ، أَجِبْنِي، فَجَعَلُوا يُقْبِلُونَ عَلَيَّ وَيَقُولُونَ: يَا أَحْمَدُ، إِمَامُكَ عَلَىٰ رَأْسِكَ قَائِمٌ! وَجَعَلَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ يَقُولُ: مَنْ صَنَعَ مِنْ أَصْحَابِكَ فِي هَذَا الْأَمْرِ مَا تَصْنَعُ؟ وَجَعَلَ الْمُعْتَصِمُ يَقُولُ: وَيْحَكَ، أَجِبْنِي إِلَىٰ شَيْءٍ لَكَ فِيهِ أَدْنَىٰ فَرَجٍ، أُطْلِقُ عَنْكَ بِيَدِي.

فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَعْطُونِي شَيْئًا مِنْ كِتَابِ اللهِ أَقُولُ بِهِ، فَيَرْجِعُ، وَقَالَ لِلْجَلَّادِينَ: تَقَدَّمُوا. فَجَعَلَ الْجَلَّادُ يَتَقَدَّمُ وَيَضْرِبُنِي سَوْطَيْنِ وَيَتَنَحَّىٰ، وَهُوَ فِي خِلَالِ ذَلِكَ يَقُولُ: شُدَّ، قَطَعَ اللهُ يَدَكَ. وَقَالَ أَحْمَدُ: فَذَهَبَ عَقْلِي، فَأَفَقْتُ بَعْدَ

www.menhag-un.com

ذَلِكَ فَإِذَا الْأَقْيَادُ قَدْ أُطْلِقَتْ عَنِّي، فَقَالَ لِي رَجُلٌ مِمَّنْ حَضَرَ إِنَّا كَبَبْنَاكَ عَلَىٰ وَجْهِكَ، وَطَرَحْنَا عَلَىٰ ظَهْرِكَ بَارِيَّةً[1] وَدُسْنَاكَ! قَالَ أَحْمَدُ فَمَا شَعُرْتُ بِذَلِكَ.

حَدَّثَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ الْفَضْلِ الْأَسَدِيُّ قَالَ: لَمَّا حُمِلَ أَحْمَدُ لِيُضْرَبَ، جَاءُوا إِلَىٰ بِشْرِ بْنِ الْحَارِثِ، فَقَالُوا: قَدْ حُمِلَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ، وَحُمِلَتِ السِّيَاطُ، وَقَدْ وَجَبَ عَلَيْكَ أَنْ تَتَكَلَّمَ، فَقَالَ: أَتُرِيدُونَ مِنِّي مَقَامَ الْأَنْبِيَاءِ؟! لَيْسَ ذَا عِنْدِي، حَفِظَ اللهُ أَحْمَدَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ.

قَالَ صَالِحُ بْنُ أَحْمَدَ: صَارَ أَبِي إِلَىٰ الْمَنْزِلِ وَوَجَّهَ إِلَيْهِ مِنَ السَّحَرِ مَنْ يُبْصِرُ الضَّرْبَ وَالْجِرَاحَاتِ وَيُعَالَجُ مِنْهَا. فَنَظَرَ إِلَيْهِ وَقَالَ: أَنَا وَاللهِ لَقَدْ رَأَيْتُ مَنْ ضُرِبَ أَلْفَ سَوْطٍ، مَا رَأَيْتُ ضَرْبًا أَشَدَّ مِنْ هَذَا. لَقَدْ جَرَّ عَلَيْهِ مَنْ خَلْفَهُ وَمَنْ قُدَّامَهُ. ثُمَّ أَدْخَلَ مِيلًا فِي بَعْضِ تِلْكَ الْجِرَاحَاتِ وَقَالَ: لَمْ يَنْضَبْ. فَجَعَلَ يَأْتِيهِ وَيُعَالِجُهُ، وَكَانَ قَدْ أَصَابَ وَجْهَهُ غَيْرُ ضَرْبَةٍ، ثُمَّ مَكَثَ يُعَالِجُهُ مَا شَاءَ اللهُ. ثُمَّ قَالَ: إِنَّ هَاهُنَا شَيْئًا أُرِيدُ أَنْ أَقْطَعَهُ. فَجَاءَ بِحَدِيدَةٍ، فَجَعَلَ يُعَلِّقُ اللَّحْمَ بِهَا وَيَقْطَعُهُ بِسِكِّينٍ، وَهُوَ صَابِرٌ بِحَمْدِ اللهِ، فَبَرَأَ. وَلَمْ يَزَلْ يَتَوَجَّعُ مِنْ مَوَاضِعَ مِنْهُ. وَكَانَ أَثَرُ الضَّرْبِ بَيِّنًا فِي ظَهْرِهِ إِلَىٰ أَنْ تُوُفِّيَ»[2].

---

(١) بِكَسْرِ الرَّاءِ، وَفَتْحِ الْيَاءِ الْمُشَدَّدَةِ: الْحَصِيرُ الْمَنْسُوجُ، يُبْسَطُ وَيُجْلَسُ عَلَيْهِ، وَهِيَ فَارِسِيَّةُ الْأَصْلِ.

(٢) «تَارِيخُ الْإِسْلَامِ» لِلذَّهَبِيِّ (٧/ ١٢٦)، وَ «سِيَرُ أَعْلَامِ النُّبَلَاءِ» (١١/ ١٧٧).

قُلْتُ: هَذِهِ أَطْرَافٌ مِنْ قِصَّةِ الْمِحْنَةِ كَمَا رَوَاهَا الْإِمَامُ الذَّهَبِيُّ، فِيهَا مِنْ ظِلَالِ الرَّهْبَةِ وَالْخَوْفِ مَا فِيهَا، وَكَأَنَّ الْمِحْنَةَ كَوْنٌ كَامِلٌ، وَعَالَمٌ شَامِلٌ، فِيهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ يَتَقَابَلَانِ وَلَا يَتَعَاقَبَانِ.

فِيهَا اللَّيْلُ بِظُلْمَتِهِ وَرَهْبَتِهِ وَسَتْرِهِ عَلَىٰ الْخِيَانَةِ وَالْغَدْرِ، فَذَلِكَ مَثَلُ أَعْدَاءِ أَحْمَدَ، وَفِيهَا الصُّبْحُ بِإِشْرَاقِهِ وَوَدَاعَتِهِ وَرِقَّةِ حَاشِيَتِهِ، وَذَلِكَ مَثَلُ الْإِمَامِ أَحْمَدَ.

لَقَدْ ثَبَتَ أَحْمَدُ حَتَّىٰ اسْتَحَقَّ الْإِمَامَةَ فَأَصْبَحَتْ عَلَمًا عَلَيْهِ، فَإِذَا ذُكِرَ الْإِمَامُ انْصَرَفَ اللَّفْظُ إِلَيْهِ، وَمَا كَانَ أَحْمَدُ إِمَامًا بِإِذْلَالِهِ لِعِلْمِهِ أَمَامَ جَبَرُوتِ السُّلْطَةِ الْغَاشِمَةِ، وَإِنَّمَا بِإِعْزَازِ عِلْمِهِ وَإِعْزَازِ الْمَحَلِّ الَّذِي أَحَلَّهُ اللهُ فِيهِ، فَرَحْمَةُ اللهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ الْإِمَامِ أَحْمَدَ.

قَالَ الذَّهَبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «قَالَ ابْنُ عَقِيْلٍ: مِنْ عَجِيْبِ مَا سَمِعتُهُ عَنْ هَؤُلَاءِ الْأَحدَاثِ الجُهَّالِ أَنَّهُمْ يَقُوْلُوْنَ: أَحْمَدُ لَيْسَ بِفَقِيْهٍ، لَكِنَّهُ مُحَدِّثٌ.

قَالَ: وَهَذَا غَايَةُ الْجَهْلِ؛ لِأَنَّ لَهُ اخْتِيَارَاتٍ بَنَاهَا عَلَىٰ الأَحَادِيْثِ بِنَاءً لَا يَعْرِفُهُ أَكْثَرُهُمْ، وَرُبَّمَا زَادَ عَلَىٰ كِبَارِهِم.

www.menhag-un.com

قُلْتُ: أَحْسِبُهُمْ يَظُنُّونَهُ كَانَ مُحَدِّثًا وَبَسْ[١]، بَلْ يَتَخَيَّلُونَهُ مِنْ بَابَةِ مُحَدِّثِي زَمَانِنَا، وَوَاللهِ لَقَدْ بَلَغَ فِي الْفِقْهِ خَاصَّةً رُتْبَةَ اللَّيْثِ، وَمَالِكٍ، وَالشَّافِعِيِّ، وَأَبِي يُوسُفَ، وَفِي الزُّهْدِ وَالْوَرَعِ رُتْبَةَ الفَضْلِ، وَإِبْرَاهِيمَ بْنِ أَدْهَمَ، وَفِي الْحِفْظِ رُتْبَةَ شُعْبَةَ، وَيَحْيَىٰ القَطَّانِ، وَابْنِ المَدِينِيِّ، وَلَكِنَّ الْجَاهِلَ لَا يَعلَمُ رُتْبَةَ نَفْسِهِ، فَكَيْفَ يَعْرِفُ رُتْبَةَ غَيْرِهِ؟!»[٢].

وَمِنْ صِيَانَةِ أَهْلِ الْعِلْمِ لَهُ مَا رَوَاهُ الْخَطِيبُ رَحِمَهُ اللهُ بِسَنَدِهِ عَنْ حَمْدَانَ الْأَصْبَهَانِيِّ قَالَ: «كُنْتُ عِنْدَ شَرِيكٍ، فَأَتَاهُ بَعْضُ وَلَدِ الْمَهْدِيِّ، فَاسْتَنَدَ إِلَىٰ الْحَائِطِ، وَسَأَلَهُ عَنْ حَدِيثٍ، فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِ، فَأَعَادَ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِ، فَقَالَ: كَأَنَّكَ تَسْتَخِفُّ بِأَوْلَادِ الْخِلَافَةِ. قَالَ: لَا، وَلَكِنَّ الْعِلْمَ أَزْيَنُ عِنْدَ أَهْلِهِ مِنْ أَنْ يُضَيِّعُوهُ. قَالَ: فَجَثَا عَلَىٰ رُكْبَتَيْهِ، ثُمَّ سَأَلَهُ، فَقَالَ شَرِيكٌ: هَكَذَا يُطْلَبُ الْعِلْمُ».

وَأَخْرَجَ الْخَطِيبُ -أَيْضًا- عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ إِسْحَاقَ الْحَرْبِيِّ قَالَ: «كَانَ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ عَبْدًا أَسْوَدَ لِامْرَأَةٍ مِنْ مَكَّةَ، وَكَانَ أَنْفُهُ بَاقِلَّاةً.

قَالَ: وَجَاءَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَىٰ عَطَاءٍ هُوَ وَابْنَاهُ فَجَلَسُوا إِلَيْهِ وَهُوَ يُصَلِّي، فَلَمَّا صَلَّىٰ انْفَتَلَ إِلَيْهِمْ، فَمَا زَالُوا يَسْأَلُونَهُ عَنْ مَنَاسِكِ

---

(١) بَسْ: بِمَعْنَىٰ حَسْبُ. (فَارِسِيَّةٌ). «الْمُعْجَمُ الْوَسِيطُ» (١/ ٥٥).

(٢) «سِيَرُ أَعْلَامِ النُّبَلَاءِ» (لِلذَّهَبِيِّ (١١/ ٣٢١»).

الْحَجِّ، وَقَدْ حَوَّلَ قَفَاهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ قَالَ سُلَيْمَانُ لَابْنَيْهِ: قُومَا. فَقَامَا. وَقَالَ: يَا ابْنَيَّ، لَا تَنِيَا فِي طَلَبِ الْعِلْمِ؛ فَإِنِّي لَا أَنْسَىٰ ذُلَّنَا بَيْنَ يَدَيْ هَذَا الْعَبْدِ الْأَسْوَدِ»(١).

وَمِنْ أَجْوَدِ مَا جَادَتْ بِهِ قَرَائِحُ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْأَدَبِ فِي بَيَانِ صِيَانَةِ أَهْلِ الْعِلْمِ لِلْعِلْمِ، وَرِعَايَتِهِمْ جَانِبَهُ، وَرُكُونِهِمْ إِلَىٰ صَرْحِ عِزِّهِ: قَصِيدَةُ الْقَاضِي أَبِي الْحَسَنِ عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْجُرْجَانِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَهِيَ قَصِيدَةٌ عَصْمَاءُ فِي وَصْفِ «الْعَالِمِ الْأَبِيِّ»، وَالِاعْتِزَازِ بِالْعِلْمِ، وَسُمُوِّ الْهِمَّةِ(٢)، ذَكَرَ التَّاجُ السُّبْكِيُّ مِنْهَا عَشْرَةَ أَبْيَاتٍ فِي «طَبَقَاتِ الشَّافِعِيَّةِ الْكُبْرَىٰ» (٣/ ٤٦٠)، هَذِهِ الْأَبْيَاتُ هِيَ:

يَقُولُونَ لِي: فِيكَ انْقِبَاضٌ وَإِنَّمَا ... رَأَوْا رَجُلًا عَنْ مَوْقِفِ الذُّلِّ أَحْجَمَا

أَرَىٰ النَّاسَ مَنْ دَانَاهُمُ هَانَ عِنْدَهُمْ ... وَمَنْ أَكْرَمَتْهُ عِزَّةُ النَّفْسِ أُكْرِمَا

وَمَا كُلُّ بَرْقٍ لَاحَ لِي يَسْتَفِزُّنِي ... وَلَا كُلُّ مَنْ لَاقَيْتُ أَرْضَاهُ مُنْعِمًا

وَإِنِّي إِذَا مَا فَاتَنِي الْأَمْرُ لَمْ أَبِتْ ... أُقَلِّبُ كَفِّي إِثْرَهُ مُتَنَدِّمَا

وَلَمْ أَقْضِ حَقَّ الْعِلْمِ إِنْ كَانَ كُلَّمَا ... بَدَا طَمَعٌ صَيَّرْتُهُ لِي سُلَّمَا

إِذَا قِيلَ هَذَا مَنْهَلٌ قُلْتُ قَدْ أَرَىٰ ... وَلَكِنَّ نَفْسَ الْحُرِّ تَحْتَمِلُ الظَّمَا

وَلَمْ أَبْتَذِلْ فِي خِدْمَةِ الْعِلْمِ مُهْجَتِي ... لِأَخْدُمَ مَنْ لَاقَيْتُ لَكِنْ لِأُخْدَمَا

أَأَشْقَىٰ بِهِ غَرْسًا وَأَجْنِيهِ ذِلَّةً؟ ... إِذَنْ فَاتِّبَاعُ الْجَهْلِ قَدْ كَانَ أَحْزَمَا

---

(١) «الْفَقِيهُ وَالْمُتَفَقِّهُ» لِلْخَطِيبِ الْبَغْدَادِيِّ (١/ ٣١).

(٢) انْظُرْ: «صَفَحَاتٌ مِنْ صَبْرِ الْعُلَمَاءِ» لِأَبِي غدة (ص٣٥٢).

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ صَانُوهُ صَانَهُمْ وَلَوْ عَظَّمُوهُ فِي النُّفُوسِ لَعُظِّمَا
وَلَكِنْ أَهَانُوهُ فَهَانَ وَدَنَّسُوا مُحَيَّاهُ بِالْأَطْمَاعِ حَتَّىٰ تَجَهَّمَا

وَلَمْ يَمْلِكِ السُّبْكِيُّ -بَعْدَ أَنْ سَاقَ الْقَصِيدَةَ- نَفْسَهُ فَانْدَفَعَ مُثْنِيًا عَلَيْهَا بِكَلَامٍ إِلَىٰ الشِّعْرِ أَقْرَبَ مِنْهُ إِلَىٰ النَّثْرِ، وَالْحَقُّ أَنَّ الْقَصِيدَةَ كَمَا قَالَ، وَفَوْقَ مَا قَالَ.

قَالَ التَّاجُ السُّبْكِيُّ فِي «الطَّبَقَاتِ» (٣/ ٤٦١): «لِلَّهِ هَذَا الشِّعْرُ! مَا أَبْلَغَهُ وَأَصْنَعَهُ! وَمَا أَعْلَىٰ عَلَىٰ هَامِ الْجَوْزَاءِ مَوْضِعَهُ! وَمَا أَنْفَعَهُ لَوْ سَمِعَهُ مَنْ سَمِعَهُ! وَهَكَذَا فَلْيَكُنْ، وَإِلَّا فَلَا، أَدَبُ كُلِّ فَقِيهٍ، وَلِمِثْلِ هَذَا النَّاظِمِ يَحْسُنُ النَّظْمُ الَّذِي لَا نَظِيرَ لَهُ وَلَا شَبِيهَ، وَعِنْدَ هَذَا يَنْطِقُ الْمُنْصِفُ بِعَظِيمِ الثَّنَاءِ عَلَىٰ ذِهْنِهِ الْخَالِي لَا بِالتَّمْوِيهِ».

وَفِي «صَفَحَاتٍ مِنْ صَبْرِ الْعُلَمَاءِ» (ص٣٥٢) اسْتِقْصَاءٌ لِأَبْيَاتِهَا، وَتَتَبُّعٌ لَهَا فِي مَظَانِّهَا، فِي كُتُبِ الْأَدَبِ، وَكُتُبِ الْأَخْلَاقِ وَالتَّعْلِيمِ، وَقَدْ بَلَغَتْ عِدَّتُهَا فِي الْمَصْدَرِ الْمَذْكُورِ أَرْبَعَةً وَعِشْرِينَ بَيْتًا، أَسُوقُهَا هُنَا -إِنْ شَاءَ اللهُ- رَغْبَةً فِيهَا، وَدَلَالَةً عَلَيْهَا:

يَقُولُونَ لِي: فِيكَ انْقِبَاضٌ وَإِنَّمَا رَأَوْا رَجُلًا عَنْ مَوْقِفِ الذُّلِّ أَحْجَمَا
أَرَىٰ النَّاسَ مَنْ دَانَاهُمُ هَانَ عِنْدَهُمْ وَمَنْ أَكْرَمَتْهُ عِزَّةُ النَّفْسِ أُكْرِمَا
وَلَمْ أَقْضِ حَقَّ الْعِلْمِ إِنْ كَانَ كُلَّمَا بَدَا مَطْمَعٌ صَيَّرْتُهُ لِيَ سُلَّمَا
وَمَا زِلْتُ مُنْحَازًا بِعِرْضِي جَانِبًا عَنِ الذُّلِّ أَعْتَدُّ الصِّيَانَةَ مَغْنَمَا

إِذَا قِيلَ هَذَا مَنْهَلٌ قُلْتُ: قَدْ أَرَىٰ ... وَلَكِنَّ نَفْسَ الْحُرِّ تَحْتَمِلُ الظَّمَا

أُنَزِّهُهَا عَنْ بَعْضِ مَا لَا يَشِينُهَا ... مَخَافَةَ أَقْوَالِ الْعِدَا: فِيمَ أَوْ لِمَا؟

فَأُصْبِحُ عَنْ عَيْبِ اللَّئِيمِ مُسَلَّمًا ... وَقَدْ رُحْتُ فِي نَفْسِ الْكَرِيمِ مُعَظَّمَا

وَإِنِّي إِذَا فَاتَنِي الْأَمْرُ لَمْ أَبِتْ ... أُقَلِّبُ كَفِّي إِثْرَهُ مُتَنَدِّمَا

وَلَكِنَّهُ إِنْ جَاءَ عَفْوًا قَبِلْتُهُ ... وَإِنْ مَالَ لَمْ أُتْبِعْهُ: هَلَّا وَلَيْتَمَا

وَأَقْبِضُ خَطْوِي عَنْ حُظُوظٍ كَثِيرَةٍ ... إِذَا لَمْ أَنَلْهَا وَافِرَ الْعِرْضِ مُكْرَمَا

وَأُكْرِمُ نَفْسِي أَنْ أُضَاحِكَ عَابِسًا ... وَأَنْ أَتَلَقَّىٰ بِالْمَدِيحِ مُذَمَّمَا

وَكَمْ طَالِبٍ رِقِّي بِنُعْمَاهُ لَمْ يَصِلْ ... إِلَيْهِ وَإِنْ كَانَ الرَّئِيسَ الْمُعَظَّمَا

وَكَمْ نِعْمَةٍ كَانَتْ عَلَىٰ الْحُرِّ نِقْمَةً ... وَكَمْ مَغْنَمٍ يَعْتَدُّهُ الْحُرُّ مَغْرَمَا

وَلَمْ أَبْتَذِلْ فِي خِدْمَةِ الْعِلْمِ مُهْجَتِي ... لِأَخْدُمَ مَنْ لَاقَيْتُ لَكِنْ لِأُخْدَمَا

أَأَشْقَىٰ بِهِ غَرْسًا وَأَجْنِيهِ ذِلَّةً؟! ... إِذَنْ فَاتِّبَاعُ الْجَهْلِ قَدْ كَانَ أَحْزَمَا

وَإِنِّي لَرَاضٍ عَنْ فَتًى مُتَعَفِّفٍ ... يَرُوحُ وَيَغْدُو لَيْسَ يَمْلِكُ دِرْهَمَا

يَبِيتُ يُرَاعِي النَّجْمَ مِنْ سُوءِ حَالِهِ ... وَيُصْبِحُ طَلْقًا ضَاحِكًا مُتَبَسِّمَا

وَلَا يَسْأَلُ الْمُثْرِينَ مَا بِأَكُفِّهِمْ ... وَلَوْ مَاتَ جُوعًا عِفَّةً وَتَكَرُّمَا

فَإِنْ قُلْتَ: زَنْدُ الْعِلْمِ كَابٍ، فَإِنَّمَا ... كَبَا حِينَ لَمْ تَحْرُسْ حِمَاهُ وَأَظْلَمَا

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ صَانُوهُ صَانَهُمْ ... وَلَوْ عَظَّمُوهُ فِي النُّفُوسِ لَعُظِّمَا

وَلَكِنْ أَهَانُوهُ فَهَانُوا وَدَنَّسُوا ... مُحَيَّاهُ بِالْأَطْمَاعِ حَتَّىٰ تَجَهَّمَا[١]

وَمَا كُلُّ بَرْقٍ لَاحَ لِي يَسْتَفِزُّنِي ... وَلَا كُلُّ مَنْ لَاقَيْتُ أَرْضَاهُ مُنْعِمَا

وَلَكِنْ إِذَا مَا اضْطَرَّنِي الضُّرُّ لَمْ أَبِتْ ... أُقَلِّبُ فِكْرِي مُنْجِدًا ثُمَّ مُتْهِمَا[٢]

إِلَىٰ أَنْ أَرَىٰ مَنْ لَا أَغَصُّ بِذِكْرِهِ ... إِذَا قُلْتُ: قَدْ أَسْدَىٰ إِلَيَّ وَأَنْعَمَا

أَخْرَجَ الدَّارِمِيُّ فِي «سُنَنِهِ» (١/ ١٦٣) بِإِسْنَادِهِ عَنِ الضَّحَّاكِ بْنِ مُوسَىٰ، قَالَ: «مَرَّ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ بِالْمَدِينَةِ وَهُوَ يُرِيدُ مَكَّةَ، فَأَقَامَ بِهَا أَيَّامًا فَقَالَ: هَلْ بِالْمَدِينَةِ أَحَدٌ أَدْرَكَ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ؟ فَقَالُوا لَهُ: أَبُو حَازِمٍ. فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ قَالَ لَهُ: يَا أَبَا حَازِمٍ مَا هَذَا الْجَفَاءُ؟ قَالَ أَبُو حَازِمٍ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَأَيَّ جَفَاءٍ رَأَيْتَ مِنِّي؟ قَالَ: أَتَانِي وُجُوهُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَلَمْ تَأْتِنِي. قَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! أُعِيذُكَ بِاللهِ أَنْ تَقُولَ مَا لَمْ يَكُنْ، مَا عَرَفْتَنِي قَبْلَ هَذَا الْيَوْمِ وَلَا أَنَا رَأَيْتُكَ.

قَالَ: فَالْتَفَتَ سُلَيْمَانُ إِلَىٰ مُحَمَّدِ بْنِ شِهَابٍ الزُّهْرِيِّ فَقَالَ: أَصَابَ الشَّيْخُ وَأَخْطَأْتُ.

قَالَ سُلَيْمَانُ: يَا أَبَا حَازِمٍ مَا لَنَا نَكْرَهُ الْمَوْتَ؟

قَالَ: لِأَنَّكُمْ أَخْرَبْتُمُ الْآخِرَةَ وَعَمَّرْتُمُ الدُّنْيَا، فَكَرِهْتُمْ أَنْ تَنْتَقِلُوا مِنَ الْعُمْرَانِ إِلَىٰ الْخَرَابِ.

---

(١) مُحَيَّاهُ: وَجْهَهُ. تَجَهَّمَ: صَارَ جَهْمًا، وَهُوَ الْكَرِيه الْمَنْظَر.

(٢) الضُّرُّ: شِدَّةُ الْإِمْلَاقِ وَالْفَاقَةِ. مُنْجِدًا: مُتَّجِهًا جِهَةَ نَجْدٍ، وَمُتْهِمًا: مُتَّجِهًا جِهَةَ تِهَامَة.

قَالَ: أَصَبْتَ يَا أَبَا حَازِمٍ، فَكَيْفَ الْقُدُومُ غَدًا عَلَىٰ اللهِ؟

قَالَ: أَمَّا الْمُحْسِنُ فَكَالْغَائِبِ يَقْدُمُ عَلَىٰ أَهْلِهِ، وَأَمَّا الْمُسِيءُ فَكَالآبِقِ يَقْدُمُ عَلَىٰ مَوْلَاهُ.

فَبَكَىٰ سُلَيْمَانُ وَقَالَ: لَيْتَ شِعْرِي مَا لَنَا عِنْدَ اللهِ؟

قَالَ: اعْرِضْ عَمَلَكَ عَلَىٰ كِتَابِ اللهِ.

قَالَ: وَأَيُّ مَكَانٍ أَجِدُهُ؟

قَالَ: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ١٣ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ﴾ [الانفطار:١٣-١٤].

قَالَ سُلَيْمَانُ: فَأَيْنَ رَحْمَةُ اللهِ يَا أَبَا حَازِمٍ؟

قَالَ أَبُو حَازِمٍ: ﴿رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الأعراف:٥٦].

قَالَ لَهُ سُلَيْمَانُ: يَا أَبَا حَازِمٍ فَأَيُّ عِبَادِ اللهِ أَكْرَمُ؟

قَالَ: أُولُو الْمُرُوءَةِ وَالنُّهَىٰ.

قَالَ لَهُ سُلَيْمَانُ: فَأَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟

قَالَ أَبُو حَازِمٍ: أَدَاءُ الْفَرَائِضِ مَعَ اجْتِنَابِ الْمَحَارِمِ.

قَالَ سُلَيْمَانُ: فَأَيُّ الدُّعَاءِ أَسْمَعُ؟

قَالَ أَبُو حَازِمٍ: دُعَاءُ الْمُحْسَنِ إِلَيْهِ لِلْمُحْسِنِ.

قَالَ: فَأَيُّ الصَّدَقَةِ أَفْضَلُ؟

www.menhaj-um.com

قَالَ: لِلسَّائِلِ الْبَائِسِ، وَجُهْدُ الْمُقِلِّ لَيْسَ فِيهَا مَنٌّ وَلَا أَذًى.

قَالَ: فَأَيُّ الْقَوْلِ أَعْدَلُ؟

قَالَ: قَوْلُ الْحَقِّ عِنْدَ مَنْ تَخَافُهُ أَوْ تَرْجُوهُ.

قَالَ: فَأَيُّ الْمُؤْمِنِينَ أَكْيَسُ؟

قَالَ: رَجُلٌ عَمِلَ بِطَاعَةِ اللهِ وَدَلَّ النَّاسَ عَلَيْهَا.

قَالَ: فَأَيُّ الْمُؤْمِنِينَ أَحْمَقُ؟

قَالَ: رَجُلٌ انْحَطَّ فِي هَوَىٰ أَخِيهِ وَهُوَ ظَالِمٌ فَبَاعَ آخِرَتَهُ بِدُنْيَا غَيْرِهِ.

قَالَ لَهُ سُلَيْمَانُ: أَصَبْتَ، فَمَا تَقُولُ فِيمَا نَحْنُ فِيهِ؟

قَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَوَتُعْفِينِي؟

قَالَ لَهُ سُلَيْمَانُ: لَا، وَلَكِنْ نَصِيحَةٌ تُلْقِيهَا إِلَيَّ.

قَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّ آبَاءَكَ قَهَرُوا النَّاسَ بِالسَّيْفِ، وَأَخَذُوا هَذَا الْمُلْكَ عَنْوَةً عَلَىٰ غَيْرِ مَشُورَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَلَا رِضَاهُمْ حَتَّىٰ قَتَلُوا مِنْهُمْ مَقْتَلَةً عَظِيمَةً، فَقَدِ ارْتَحَلُوا عَنْهَا، فَلَوْ أُشْعِرْتَ مَا قَالُوا وَمَا قِيلَ لَهُمْ.

فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنْ جُلَسَائِهِ: بِئْسَمَا قُلْتَ يَا أَبَا حَازِمٍ.

قَالَ أَبُو حَازِمٍ: كَذَبْتَ؛ إِنَّ اللهَ أَخَذَ مِيثَاقَ الْعُلَمَاءِ لَيُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا يَكْتُمُونَهُ.

قَالَ لَهُ سُلَيْمَانُ: فَكَيْفَ لَنَا أَنْ نُصْلِحَ؟

قَالَ تَدَعُونَ الصَّلَفَ وَتَمَسَّكُونَ بِالْمُرُوءَةِ وَتَقْسِمُونَ بِالسَّوِيَّةِ.

قَالَ لَهُ سُلَيْمَانُ: كَيْفَ لَنَا بِالْمَأْخَذِ بِهِ؟

قَالَ أَبُو حَازِمٍ: تَأْخُذُهُ مِنْ حِلِّهِ وَتَضَعُهُ فِي أَهْلِهِ.

قَالَ لَهُ سُلَيْمَانُ: هَلْ لَكَ يَا أَبَا حَازِمٍ أَنْ تَصْحَبَنَا فَتُصِيبَ مِنَّا وَنُصِيبَ مِنْكَ؟

قَالَ: أَعُوذُ بِاللهِ.

قَالَ سُلَيْمَانُ: وَلِمَ ذَاكَ؟

قَالَ: أَخْشَىٰ أَنْ أَرْكَنَ إِلَيْكُمْ شَيْئًا قَلِيلًا؛ فَيُذِيقَنِي اللهُ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ.

قَالَ لَهُ سُلَيْمَانُ: ارْفَعْ إِلَيْنَا حَوَائِجَكَ.

قَالَ: تُنْجِينِي مِنَ النَّارِ وَتُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ.

قَالَ سُلَيْمَانُ: لَيْسَ ذَاكَ إِلَيَّ.

قَالَ أَبُو حَازِمٍ: فَمَا لِي إِلَيْكَ حَاجَةٌ غَيْرُهَا.

قَالَ: فَادْعُ لِي.

قَالَ أَبُو حَازِمٍ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ سُلَيْمَانُ وَلِيَّكَ فَيَسِّرْهُ لِخَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَإِنْ كَانَ عَدُوَّكَ فَخُذْ بِنَاصِيَتِهِ إِلَىٰ مَا تُحِبُّ وَتَرْضَىٰ.

قَالَ لَهُ سُلَيْمَانُ: قَطُّ.

قَالَ أَبُو حَازِمٍ: قَدْ أَوْجَزْتُ وَأَكْثَرْتُ، إِنْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِهِ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ مِنْ أَهْلِهِ، فَمَا يَنْفَعُنِي أَنْ أَرْمِيَ عَنْ قَوْسٍ لَيْسَ لَهَا وَتَرٌ.

قَالَ لَهُ سُلَيْمَانُ: أَوْصِنِي.

قَالَ: سَأُوصِيكَ وَأُوجِزُ: عَظِّمْ رَبَّكَ وَنَزِّهْهُ أَنْ يَرَاكَ حَيْثُ نَهَاكَ أَوْ يَفْقِدَكَ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكَ.

فَلَمَّا خَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ بَعَثَ إِلَيْهِ بِمِئَةِ دِينَارٍ وَكَتَبَ إِلَيْهِ: أَنْ أَنْفِقْهَا وَلَكَ عِنْدِي مِثْلُهَا كَثِيرٌ.

قَالَ: فَرَدَّهَا عَلَيْهِ وَكَتَبَ إِلَيْهِ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أُعِيذُكَ بِاللهِ أَنْ يَكُونَ سُؤَالُكَ إِيَّايَ هَزْلًا أَوْ رَدِّي عَلَيْكَ بَذْلًا وَمَا أَرْضَاهَا لَكَ، فَكَيْفَ أَرْضَاهَا لِنَفْسِي؟!

وَكَتَبَ إِلَيْهِ: إِنَّ مُوسَىٰ بْنَ عِمْرَانَ لَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهَا رِعَاءً يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ جَارِيَتَيْنِ تَذُودَانِ فَسَأَلَهُمَا فَقَالَتَا: ﴿لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص:٢٣-٢٤].

وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ جَائِعًا خَائِفًا لَا يَأْمَنُ فَسَأَلَ رَبَّهُ وَلَمْ يَسْأَلِ النَّاسَ، فَلَمْ يَفْطِنِ الرِّعَاءُ وَفَطِنَتِ الْجَارِيَتَانِ، فَلَمَّا رَجَعَتَا إِلَىٰ أَبِيهِمَا أَخْبَرَتَاهُ بِالْقِصَّةِ وَبِقَوْلِهِ.

www.menhag-un.com

فَقَالَ أَبُوهُمَا -وَهُوَ شُعَيْبٌ- هَذَا رَجُلٌ جَائِعٌ، فَقَالَ لِإِحْدَاهُمَا: اذْهَبِي فَادْعِيهِ. فَلَمَّا أَتَتْهُ عَظَّمَتْهُ وَغَطَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾. فَشَقَّ عَلَىٰ مُوسَىٰ حِينَ ذَكَرَتْ ﴿أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ وَلَمْ يَجِدْ بُدًّا مِنْ أَنْ يَتْبَعَهَا؛ لِأَنَّهُ كَانَ بَيْنَ الْجِبَالِ جَائِعًا مُسْتَوْحِشًا، فَلَمَّا تَبِعَهَا هَبَّتِ الرِّيحُ فَجَعَلَتْ تَصْفِقُ ثِيَابَهَا عَلَىٰ ظَهْرِهَا فَتَصِفُ لَهُ عَجِيزَتَهَا، وَكَانَتْ ذَاتَ عَجُزٍ، وَجَعَلَ مُوسَىٰ يَعْرِضُ مَرَّةً وَيَغُضُّ أُخْرَىٰ، فَلَمَّا عِيلَ صَبْرُهُ نَادَاهَا: يَا أَمَةَ اللهِ كُونِي خَلْفِي وَأَرِينِي السَّمْتَ بِقَوْلِكِ.

فَلَمَّا دَخَلَ عَلَىٰ شُعَيْبٍ إِذَا هُوَ بِالْعَشَاءِ مُهَيَّأً فَقَالَ لَهُ شُعَيْبٌ: اجْلِسْ يَا شَابُّ فَتَعَشَّ.

فَقَالَ لَهُ مُوسَىٰ: أَعُوذُ بِاللهِ. فَقَالَ لَهُ شُعَيْبٌ: لِمَ؟ أَمَا أَنْتَ جَائِعٌ؟

قَالَ: بَلَىٰ، وَلَكِنِّي أَخَافُ أَنْ يَكُونَ هَذَا عِوَضًا لِمَا سَقَيْتُ لَهُمَا، وَأَنَا مِنْ أَهْلِ بَيْتٍ لَا نَبِيعُ شَيْئًا مِنْ دِينِنَا بِمِلْءِ الأَرْضِ ذَهَبًا.

فَقَالَ لَهُ شُعَيْبٌ: لَا يَا شَابُّ وَلَكِنَّهَا عَادَتِي وَعَادَةُ آبَائِي: نُقْرِي الضَّيْفَ، وَنُطْعِمُ الطَّعَامَ. فَجَلَسَ مُوسَىٰ فَأَكَلَ.

فَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ الْمِئَةُ دِينَارٍ عِوَضًا لِمَا حَدَّثْتُ فَالْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ فِي حَالِ الِاضْطِرَارِ أَحَلُّ مِنْ هَذِهِ، وَإِنْ كَانَ لِحَقٍّ لِي فِي بَيْتِ الْمَالِ فَلِي فِيهَا نُظَرَاءُ، فَإِنْ سَاوَيْتَ بَيْنَنَا وَإِلَّا فَلَيْسَ لِي فِيهَا حَاجَةٌ».

وَكَانَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ لَا يَذِلُّ إِلَّا لِرَبِّهِ، وَلَا يَخْضَعُ إِلَّا لِبَارِئِهِ، وَالَّذِي جَاءَ عَنْهُ فِي ذَلِكَ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُحْصَىٰ، وَإِنَّمَا أَضْرِبُ لَكَ مَثَلًا وَأَسُوقُ شَاهِدًا.

«فَإِنَّهُ لَمَّا ظَهَرَ السُّلْطَانُ غَازَانُ عَلَىٰ دِمَشْقَ الْمَحْرُوسَةِ جَاءَهُ مَلِكُ الْكُرْجِ[1] وَبَذَلَ لَهُ أَمْوَالًا كَثِيرَةً جَزِيلَةً عَلَىٰ أَنْ يُمَكِّنَهُ مِنَ الْفَتْكِ بِالْمُسْلِمِينَ، مِنْ أَهْلِ دِمَشْقَ، وَوَصَلَ الْخَبَرُ إِلَىٰ الشَّيْخِ، فَقَامَ مِنْ فَوْرِهِ وَشَجَّعَ الْمُسْلِمِينَ، وَرَغَّبَهُمْ فِي الشَّهَادَةِ، وَوَعَدَهُمْ عَلَىٰ قِيَامِهِمْ بِالنَّصْرِ وَالظَّفَرِ وَالْأَمْنِ، وَزَوَالِ الْخَوْفِ.

فَانْتُدِبَ مِنْهُمْ رِجَالٌ مِنْ وُجُوهِهِمْ وَكُبَرَائِهِمْ وَذَوِي الْأَحْلَامِ مِنْهُمْ، فَخَرَجُوا مَعَهُ إِلَىٰ حَضْرَةِ السُّلْطَانِ غَازَانَ، فَلَمَّا رَآهُمُ السُّلْطَانُ قَالَ: مِنْ هَؤُلَاءِ؟ فَقِيلَ: هُمْ رُؤَسَاءُ دِمَشْقَ، فَأَذِنَ لَهُمْ، فَحَضَرُوا بَيْنَ يَدَيْهِ.

فَتَقَدَّمَ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ أَوَّلًا، فَلَمَّا أَنْ رَآهُ أَوْقَعَ اللهُ لَهُ فِي قَلْبِهِ هَيْبَةً عَظِيمَةً، حَتَّىٰ أَدْنَاهُ وَأَجْلَسَهُ.

وَأَخَذَ الشَّيْخُ فِي الْكَلَامِ مَعَهُ أَوَّلًا فِي عَكْسِ رَأْيِهِ عَنْ تَسْلِيطِ الْمَخْذُولِ مَلِكِ الْكَرْجِ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ، وَضَمِنَ لَهُ أَمْوَالًا، وَأَخْبَرَهُ بِحُرْمَةِ دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ، وَذَكَّرَهُ

(١) هُوَ نَارين دَاوُد مَلِكُ الْكُرْجِ إِحْدَىٰ دُوَلِ الْأَرمن.

www.menhaj-un.com

وَوَعَظَهُ، فَأَجَابَهُ إِلَىٰ ذَلِكَ طَائِعًا، وَحُقِنَتْ بِسَبَبِهِ دِمَاءُ الْمُسْلِمِينَ، وَحُمِيَتْ ذَرَارِيهِمْ وَصِينَ حَرِيمُهُمْ.

قَالَ الشَّيْخُ وَجِيهُ الدِّينِ بْنُ الْمَنْجَا: كُنْتُ حَاضِرًا مَعَ الشَّيْخِ حِينَئِذٍ، فَجَعَلَ يَعْنِي الشَّيْخَ يُحَدِّثُ السُّلْطَانَ بِقَوْلِ اللهِ وَرَسُولِهِ، وَيَرْفَعُ صَوْتَهُ عَلَىٰ السُّلْطَانِ فِي أَثْنَاءِ حَدِيثِهِ حَتَّىٰ جَثَا عَلَىٰ رُكْبَتَيْهِ، وَجَعَلَ يَقْرُبُ مِنْهُ فِي أَثْنَاءِ حَدِيثِهِ، حَتَّىٰ لَقَدْ قَرُبَ أَنْ تُلَاصِقَ رُكْبَتُهُ رُكْبَةَ السُّلْطَانِ، وَالسُّلْطَانُ مَعَ ذَلِكَ مُقْبِلٌ عَلَيْهِ بِكُلِّيَّتِهِ، مُصْغٍ لِمَا يَقُولُ، شَاخِصٌ إِلَيْهِ لَا يُعْرِضُ عَنْهُ، وَإِنَّ السُّلْطَانَ مِنْ شِدَّةِ مَا أَوْقَعَ اللهُ مَا فِي قَلْبِهِ مِنَ الْمَحَبَّةِ وَالْهَيْبَةِ سَأَلَ مَنْ يَخُصُّهُ مِنْ أَهْلِ حَضْرَتِهِ: مَنْ هَذَا الشَّيْخُ؟ إِنِّي لَمْ أَرَ مِثْلَهُ، وَلَا أَثْبَتَ قَلْبًا مِنْهُ، وَلَا أَوْقَعَ مِنْ حَدِيثِهِ فِي قَلْبِي، وَلَا رَأَيْتُنِي أَعْظَمَ انْقِيَادًا لِأَحَدٍ مِنْهُ. فَأُخْبِرَ بِحَالِهِ، وَمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ.

فَقَالَ الشَّيْخُ لِلتُّرْجُمَانِ: قُلْ لِغَازَانَ: أَنْتَ تَزْعُمُ أَنَّكَ مُسْلِمٌ، وَمَعَكَ قَاضٍ وَإِمَامٌ وَشَيْخٌ وَمُؤَذِّنُونَ عَلَىٰ مَا بَلَغَنَا، فَغَزَوْتَنَا، وَأَبُوكَ وَجَدُّكَ كَانَا كَافِرَيْنِ وَمَا عَمِلَا الَّذِي عَمِلْتَ، عَاهَدَا فَوَفَّيَا وَأَنْتَ عَاهَدْتَ فَغَدَرْتَ، وَقُلْتَ فَمَا وَفَيْتَ وَجُرْتَ.

ثُمَّ خَرَجَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ مُكَرَّمًا مُعَزَّزًا قَدْ صَنَعَ لَهُ اللهُ بِمَا طَوَىٰ عَلَيْهِ نِيَّتَهُ الصَّالِحَةَ مِنْ بَذْلِهِ نَفْسَهُ فِي طَلَبِ حَقْنِ دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ، فَبَلَغَهُ مَا أَرَادَهُ، وَكَانَ

ذَلِكَ أَيْضًا سَبَبًا لِتَخْلِيصِ غَالِبِ أُسَارَىٰ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَيْدِيهِمْ وَرَدِّهِمْ عَلَىٰ أَهْلِهِمْ وَحِفْظِ حَرِيمِهِمْ، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الشَّجَاعَةِ وَالثَّبَاتِ وَقُوَّةِ الْجَأْشِ.

وَكَانَ يَقُولُ: لَنْ يَخَافَ الرَّجُلُ غَيْرَ اللهِ إِلَّا لِمَرَضٍ فِي قَلْبِهِ، فَإِنَّ رَجُلًا شَكَا إِلَىٰ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ خَوْفَهُ مِنْ بَعْضِ الْوُلَاةِ فَقَالَ لَهُ: لَوْ صَحَّحْتَ لَمْ تَخَفْ أَحَدًا؛ أَيْ خَوْفُكَ مِنْ أَجْلِ زَوَالِ الصِّحَّةِ مِنْ قَلْبِكَ»(١).

وَأَخْبَرَ الْقَاضِي أَبُو الْعَبَّاسِ أَنَّهُمْ لَمَّا حَضَرُوا مَجْلِسَ غَازَانَ: قُدِّمَ لَهُمْ طَعَامٌ فَأَكَلُوا مِنْهُ إِلَّا ابْنَ تَيْمِيَةَ، فَقِيلَ: لِمَ لَمْ تَأْكُلْ؟ فَقَالَ: كَيْفَ آكُلُ مِنْ طَعَامِكَ وَكُلُّهُ مِمَّا نَهَبْتُمْ مِنْ أَغْنَامِ النَّاسِ، طَبَخْتُمُوهُ بِمَا قَطَعْتُمْ مِنْ أَشْجَارِ النَّاسِ.

ثُمَّ إِنَّ غَازَانَ طَلَبَ مِنْهُ الدُّعَاءَ، فَقَالَ فِي دُعَائِهِ: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ إِنَّمَا قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِكَ فَأَيِّدْهُ وَانْصُرْهُ، وَإِنْ كَانَ لِلْمُلْكِ وَالدُّنْيَا وَالتَّكَاثُرِ فَافْعَلْ بِهِ وَاصْنَعْ، فَكَانَ يَدْعُو عَلَيْهِ وَغَازَانُ يُؤَمِّنُ عَلَىٰ دُعَائِهِ، وَنَحْنُ نَجْمَعُ ثِيَابَنَا؛ خَوْفًا أَنْ يُقْتَلَ فَيُصِيبَنَا بِدَمِهِ»(٢).

---

(١) «الْأَعْلَامُ الْعَلِيَّةُ فِي مَنَاقِبِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ»لِلْحَافِظِ عُمَرَ بْنِ عَلِيٍّ الْبَزَّارِ، تَحْقِيقُ زُهَيْرٍ الشَّاوِيش (ص٦٣)، وَ «غَايَةُ الْأَمَانِيِّ» لِمَحْمُود شُكْرِي الْأَلُوسِيّ (٢/ ١٧٦).

(٢) «غَايَةُ الْأَمَانِيِّ» (٢/ ١٧٧).

وَفِي مُقَابِلِ هَذِهِ الصُّوَرِ الْمُشْرِقَةِ، صُوَرٌ مُظْلِمَةٌ حَالِكَةُ السَّوَادِ، لِقَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ حَمَلَتْهُمْ خِسَّةُ مَكَاسِبِ الدُّنْيَا عَلَىٰ نِسْيَانِ أَمْثَالِ نَصِيحَةِ أَبِي حَنِيفَةَ فَأَهْلَكُوا أَنْفُسَهُمْ وَمَا كَانُوا يَشْعُرُونَ.

قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «كُنْ مِنَ السُّلْطَانِ كَمَا أَنْتَ مِنَ النَّارِ، تَنْتَفِعُ مِنْهَا وَتَتَبَاعَدُ عَنْهَا، وَلَا تَدْنُ مِنْهَا فَإِنَّهَا تَحْتَرِقُ».

مِنْ أَمْثِلَةِ ذَلِكَ مَا فَعَلَهُ غِيَاثُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ حِينَ دَخَلَ عَلَىٰ الْخَلِيفَةِ الْمَهْدِيِّ وَهُوَ يَلْعَبُ بِالْحَمَامِ فَسَاقَ فِي الْحَالِ إِسْنَادًا إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**لَا سَبَقَ إِلَّا فِي نَصْلٍ أَوْ خُفٍّ أَوْ حَافِرٍ**»[1]. وَزَادَ فِيهِ: «**أَوْ جَنَاحٍ**». فَعَرَفَ الْمَهْدِيُّ أَنَّهُ كَذَبَ لِأَجْلِهِ، فَأَمَرَ بِذَبْحِ الْحَمَامِ.

وَأَمَّا أُولُو الْعَزْمِ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ فَإِنَّهُمْ لَا تَذِلُّ رِقَابُهُمْ وَلَا قُلُوبُهُمْ إِلَّا لِلَّهِ تَعَالَىٰ وَحْدَهُ، يَعِزُّ بِهِمُ الْعِلْمُ، وَبِهِ يَعِزُّونَ، وَيُصَانُ بِهِمْ وَبِهِ يُصَانُونَ.

---

(١) الْحَدِيثُ بِدُونِ الزِّيَادَةِ صَحِيحٌ: رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ (٢٥٧٤)، وَالنَّسَائِيُّ (٣٥٨٧)، وَالتِّرْمِذِيُّ (١٧٠٠)، وَابْنُ مَاجَهْ (٢٨٧٨).

وَالسَّبَقُ -بِفَتْحِ الْبَاءِ-: مَا يُجْعَلُ لِلسَّابِقِ عَلَىٰ سَبْقِهِ مِنْ جُعْلٍ أَوْ نَوَالٍ، فَأَمَّا السَّبْقُ -بِسُكُونِ الْبَاءِ-: فَهُوَ مَصْدَرُ سَبَقْتُ الرَّجُلَ أَسْبِقُهُ سَبْقًا، يُرِيدُ أَنَّ الْجُعْلَ وَالْعَطَاءَ لَا يُسْتَحَقُّ إِلَّا فِي سِبَاقِ الْخَيْلِ وَالْإِبِلِ وَمَا فِي مَعْنَاهَا، وَفِي النَّصْلِ: وَهُوَ الرَّمْيُ.

يَقُولُ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ نَاصِحًا وَمُرْشِدًا -وَأَرْفِقْ بِهِ مِنْ نَاصِحٍ وَمُرْشِدٍ، فَعَلَيْكَ بِهَا -لِأَنَّهَا نَفِيسَةٌ غَالِيَةٌ-:

ارْحَلْ بِنَفْسِكَ مِنْ أَرْضٍ تُضَامُ بِهَا ... وَلَا تَكُنْ مِنْ فِرَاقِ الأَهْلِ فِي حُرَقِ

وَالْكُحْلُ نَوْعٌ مِنَ الْأَحْجَارِ تَنْظُرُهُ ... فِي أَرْضِهِ وَهْوَ مَرْمِيٌّ عَلَىٰ الطُّرُقِ

لَمَّا تَغَرَّبَ حَازَ الْفَضْلَ أَجْمَعَهُ ... فَصَارَ يُحْمَلُ بَيْنَ الْجَفْنِ وَالْحَدَقِ

جامعة منهاج النبوة
www.menhag-un.com

٦- الْكِبْرُ وَالْعُجْبُ

إِعْزَازُ الْعِلْمِ وَصِيَانَتُهُ لَا يَعْنِي الْكِبْرَ بِسَبَبِهِ، وَلَا الْعُجْبَ بِهِ.

الْكِبْرُ وَالْعُجْبُ خُلُقَانِ مَذْمُومَانِ، يَتَرَفَّعُ عَنْهُمَا آحَادُ الْمُؤْمِنِينَ فَكَيْفَ بِأَهْلِ الْعِلْمِ مِنْهُمْ؟! وَقَدْ ذَمَّ اللهُ تَعَالَىٰ الْكِبْرَ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ مِنْ كِتَابِهِ الْكَرِيمِ.

فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف:١٤٦].

وَقَالَ تَعَالَىٰ مُخَاطِبًا إِبْلِيسَ -لَعَنَهُ اللهُ-: ﴿ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ [الأعراف:١٣].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٣٤].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الزمر: ٥٩].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف:٤٠].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [النساء:١٧٢].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل:٢٣].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٠].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر:٣٥].

وَالْآيَاتُ فِي ذَمِّ الْكِبْرِ وَالْعُجْبِ كَثِيرَةٌ كَثِيرَةٌ، وَلَكِنِّي أَجْتَزِئُ بِالْقَلِيلِ؛ لِيَكُونَ كَالتَّنْبِيهِ عَلَىٰ مَا وَرَاءَهُ، وَمَنْ أَرَادَ جَمْعًا فَدُونَهُ كِتَابَ اللَّهِ تَعَالَىٰ.

وَأَحَادِيثُ النَّبِيِّ ﷺ فِي هَذَا الْمَعْنَىٰ كَثِيرَةٌ أَيْضًا وَضَافِيَةٌ، أَسُوقُ إِلَيْكَ مِنْهَا:

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ**»، فَقَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا، ونَعلُهُ حَسَنَةً، قَالَ: «**إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ: بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ**»(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

---

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٩١)، وَ«**بَطَرُ الْحَقِّ**»: دَفْعُهُ وَإِنْكَارُهُ تَرَفُّعًا وَتَجَبُّرًا، وَ«**غَمْطُ النَّاسِ**»: =

وَعَنْ أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لَا يَنْظُرُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ إِلَىٰ مَنْ جَرَّ إِزَارَهُ بَطَرًا**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(١).

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**احْتَجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتِ النَّارُ: فِيَّ الْجَبَّارُونَ وَالْمُتَكَبِّرُونَ، وَقَالَتِ الْجَنَّةُ: فِيَّ ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَمَسَاكِينُهُمْ، فَقَضَىٰ اللهُ بَينَهُمَا: إِنَّكِ الجَنَّةُ رَحمَتِي، أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ، وَإِنَّكِ النَّارُ عَذَابِي، أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ، وَلِكِلَيكُمَا عَلَيَّ مِلْؤُهَا**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٢).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي فِيْ حُلَّةٍ، تُعْجِبُهُ نَفْسُهُ مُرَجِّلٌ جُمَّتَهُ، إِذْ خَسَفَ اللهُ بِهِ، فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ**»(٣). مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: الْعِزُّ إِزَارِي، وَالْكِبرِيَاءُ رِدَائِي؛ فَمَنْ يُنَازِعُنِي عَذَّبْتُهُ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٤).

=

احْتِقَارُهُمْ.

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٥٤٥١)، وَمُسْلِمٌ (٢٠٨٧).

(٢) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٨٤٦).

(٣) «الْبُخَارِيُّ» (٥٤٥٢)، وَمُسْلِمٌ (٢٠٨٨)، وَمُرَجِّلٌ رَأْسَهُ: أَيْ: مُمَشِّطُهُ. وَيَتَجَلْجَلُ: -بِالْجِيمَيْنِ-، أَيْ: يَغُوصُ وَيَنْزِلُ.

(٤) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٦٢٠).

*** الْكِبْرُ ظَاهِرٌ وَبَاطِنٌ:**

«اعْلَمْ أَنَّ الْكِبْرَ يَنْقَسِمُ إِلَىٰ ظَاهِرٍ وَبَاطِنٍ، فَالْبَاطِنُ هُوَ خُلُقٌ فِي النَّفْسِ، وَالظَّاهِرُ هُوَ أَعْمَالٌ تَصْدُرُ عَنِ الْجَوَارِحِ، وَاسْمُ الْكِبْرِ بِالْخُلُقِ الْبَاطِنِ أَحَقُّ، أَمَّا الْأَعْمَالُ فَإِنَّهَا ثَمَرَاتٌ لِذَلِكَ الْخُلُقِ.

وَخُلُقُ الْكِبْرِ مُوجِبٌ لِلْأَعْمَالِ، وَلِذَلِكَ إِذَا ظَهَرَ عَلَىٰ الْجَوَارِحِ يُقَالُ: تَكَبَّرَ، وَإِذَا لَمْ يَظْهَرْ يُقَالُ: فِي نَفْسِهِ كِبْرٌ.

وَلَا يُتَصَوَّرُ أَنْ يَكُونَ مُتَكَبِّرًا إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَعَ غَيْرِهِ وَهُوَ يَرَىٰ نَفْسَهُ فَوْقَ ذَلِكَ الْغَيْرِ فِي صِفَاتِ الْكَمَالِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَكُونُ مُتَكَبِّرًا، وَلَا يَكْفِي أَنْ يَسْتَعْظِمَ نَفْسَهُ لِيَكُونَ مُتَكَبِّرًا، فَإِنَّهُ قَدْ يَسْتَعْظِمُ نَفْسَهُ، وَلَكِنَّهُ يَرَىٰ غَيْرَهُ أَعْظَمَ مِنْ نَفْسِهِ أَوْ مِثْلَ نَفْسِهِ فَلَا يَتَكَبَّرُ عَلَيْهِ.

ثُمَّ هَذِهِ الْعِزَّةُ تَقْتَضِي أَعْمَالًا فِي الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ هِيَ ثَمَرَاتٌ، وَيُسَمَّىٰ ذَلِكَ تَكَبُّرًا.

فَهُوَ إِنْ حَاجَّ أَوْ نَاظَرَ أَنِفَ أَنْ يُرَدَّ عَلَيْهِ، وَإِنْ وُعِظَ اسْتَنْكَفَ مِنَ الْقَبُولِ، وَإِنْ وَعَظَ عَنُفَ فِي النُّصْحِ، وَإِنْ رُدَّ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ قَوْلِهِ غَضِبَ، وَإِنْ عَلَّمَ لَمْ يَرْفُقْ بِالْمُتَعَلِّمِينَ وَاسْتَذَلَّهُمْ وَانْتَهَرَهُمْ وَامْتَنَّ عَلَيْهِمْ وَاسْتَخْدَمَهُمْ، وَيَنْظُرُ إِلَىٰ الْعَامَّةِ كَأَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَىٰ الْحَمِيرِ؛ اسْتِجْهَالًا لَهُمْ وَاسْتِحْقَارًا.

وَالْأَعْمَالُ الصَّادِرَةُ عَنْ خُلُقِ الْكِبْرِ كَثِيرَةٌ، وَهِيَ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَىٰ فَلَا

حَاجَةَ إِلَىٰ تَعْدَادِهَا فَإِنَّهَا مَشْهُورَةٌ.

فَهَذَا هُوَ الْكِبْرُ وَآفَتُهُ عَظِيمَةٌ، وَغَائِلَتُهُ هَائِلَةٌ، وَفِيهِ يَهْلِكُ الْخَوَاصُّ مِنَ الْخَلْقِ، وَكَيْفَ لَا تَعْظُمُ آفَتُهُ وَقَدْ قَالَ ﷺ: «**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ**»(١).

*** الْفَرْقُ بَيْنَ الْكِبْرِ وَالْمَهَابَةِ:**

قَدْ يَلْتَبِسُ الْكِبْرُ بِغَيْرِهِ مِمَّا لَيْسَ كِبْرًا بَلْ هُوَ مَشْرُوعٌ، وَهُنَاكَ فَرْقٌ دَقِيقٌ بَيْنَ الْمَهَابَةِ الَّتِي هِيَ أَثَرٌ مِنْ آثَارِ الطَّاعَةِ وَالْقُرْبِ، وَالْكِبْرِ الَّذِي هُوَ مِنْ أَخَصِّ صِفَاتِ إِبْلِيسَ -لَعَنَهُ اللهُ-.

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: «الْفَرْقُ بَيْنَ الْمَهَابَةِ وَالْكِبْرِ: أَنَّ الْمَهَابَةَ أَثَرٌ مِنْ آثَارِ امْتِلَاءِ الْقَلْبِ بِعَظَمَةِ اللهِ وَمَحَبَّتِهِ وَإِجْلَالِهِ، فَإِذَا امْتَلَأَ الْقَلْبُ بِذَلِكَ حَلَّ فِيهِ النُّورُ، وَنَزَلَتْ عَلَيْهِ السَّكِينَةُ، وَأُلْبِسَ رِدَاءَ الْهَيْبَةِ، فَاكْتَسَىٰ وَجْهُهُ الْحَلَاوَةَ وَالْمَهَابَةَ، فَأَخَذَ بِمَجَامِعِ الْقُلُوبِ مَحَبَّةً وَمَهَابَةً، فَحَنَّتْ إِلَيْهِ الْأَفْئِدَةُ وَقَرَّتْ بِهِ الْعُيُونُ، وَأَنِسَتْ بِهِ الْقُلُوبُ، فَكَلَامُهُ نُورٌ، وَمَدْخَلُهُ نُورٌ، وَمَخْرَجُهُ نُورٌ، وَعَمَلُهُ نُورٌ، وَإِنْ سَكَتَ عَلَاهُ الْوَقَارُ، وَإِنْ تَكَلَّمَ أَخَذَ بِالْقُلُوبِ وَالْأَسْمَاعِ.

وَأَمَّا الْكِبْرُ، فَأَثَرٌ مِنْ آثَارِ الْعُجْبِ وَالْبَغْيِ فِي قَلْبٍ قَدِ امْتَلَأَ بِالْجَهْلِ وَالظُّلْمِ،

---

(١) «تَهْذِيبُ الْإِحْيَاءِ» لِعَبْدِ السَّلَامِ هَارُون (٢/ ١٢٨)، وَالْحَدِيثُ رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٩١).

تَرَحَّلَتْ مِنْهُ الْعُبُودِيَّةُ، وَنَزَلَ عَلَيْهِ الْمَقْتُ، فَنَظَرُهُ إِلَىٰ النَّاسِ شَزْرٌ[١] وَمَشْيُهُ بَيْنَهُمْ تَبَخْتُرٌ[٢]، وَمُعَامَلَتُهُ لَهُمْ مُعَامَلَةُ الِاسْتِئْثَارِ لَا الْإِيثَارِ[٣] وَلَا الْإِنْصَافِ، ذَاهِبٌ بِنَفْسِهِ تِيهًا لَا يَبْدَأُ مَنْ لَقِيَهُ بِالسَّلَامِ، وَإِنْ رَدَّ عَلَيْهِ رَأَىٰ أَنَّهُ قَدْ بَالَغَ فِي الْإِنْعَامِ عَلَيْهِ، لَا يَنْطَلِقُ لَهُمْ وَجْهُهُ، وَلَا يَسَعُهُمْ خُلُقُهُ، وَلَا يَرَىٰ لِأَحَدٍ عَلَيْهِ حَقًّا وَيَرَىٰ حُقُوقَهُ عَلَىٰ النَّاسِ، وَلَا يَرَىٰ فَضْلَهُمْ عَلَيْهِ وَيَرَىٰ فَضْلَهُ عَلَيْهِمْ، وَلَا يَزْدَادُ مِنَ اللهِ إِلَّا بُعْدًا، وَمِنَ النَّاسِ إِلَّا صَغَارًا وَبُغْضًا»[٤].

*** دَرَجَاتُ الْعُبَّادِ وَالْعُلَمَاءِ فِي الْكِبْرِ:**

ثُمَّ إِنَّ الْعُبَّادَ وَالْعُلَمَاءَ لَيْسُوا فِي الْكِبْرِ سَوَاءً، بَلْ هُمْ فِيهِ عَلَىٰ دَرَجَاتٍ.

قَالَ ابْنُ قُدَامَةَ رَحِمَهُ اللهُ: «اعْلَمْ أَنَّ الْعُلَمَاءَ وَالْعُبَّادَ فِي آفَةِ الْكِبْرِ عَلَىٰ ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ:

الْأُولَىٰ: أَنْ يَكُونَ الْكِبْرُ مُسْتَقِرًّا فِي قَلْبِ الْإِنْسَانِ مِنْهُمْ، فَهُوَ يَرَىٰ نَفْسَهُ خَيْرًا مِنْ غَيْرِهِ، إِلَّا أَنَّهُ يَجْتَهِدُ وَيَتَوَاضَعُ، فَهَذَا فِي قَلْبِهِ شَجَرَةُ الْكِبْرِ مَغْرُوسَةٌ، إِلَّا أَنَّهُ قَدْ قَطَعَ أَغْصَانَهَا.

---

(١) **نَظَرٌ شَزْرٌ**: فِيهِ إِعْرَاضٌ، كَنَظَرِ الْمُعَادِي الْمُبْغِضِ، وَقِيلَ: هُوَ نَظَرٌ عَلَىٰ غَيْرِ اسْتِوَاءٍ بِمُؤَخَّرِ الْعَيْنِ.

(٢) يَتَبَخْتَرُ: يَخْتَالُ، الْبَخْتَرِيُّ: الْمُتَبَخْتِرُ فِي مَشْيِهِ، وَهِيَ مِشْيَةُ الْمُتَكَبِّرِ الْمُعْجَبِ بِنَفْسِهِ.

(٣) الِاسْتِئْثَارُ: الِانْفِرَادُ بِالشَّيْءِ، وَضِدُّهُ الْإِيثَارُ.

(٤) «الرُّوحُ» لِابْنِ الْقَيِّمِ (ص٣١٦).

الثَّانِيَةُ: أَنْ يُظْهِرَ لَكَ بِأَفْعَالِهِ مِنَ التَّرَفُّعِ فِي الْمَجَالِسِ، وَالتَّقَدُّمِ عَلَىٰ الْأَقْرَانِ، وَالْإِنْكَارِ عَلَىٰ مَنْ يُقَصِّرُ فِي حَقِّهِ، فَتَرَىٰ الْعَالِمَ يُصَعِّرُ خَدَّهُ لِلنَّاسِ، كَأَنَّهُ مُعرِضٌ عَنْهُمْ، وَالْعَابِدَ يَعِيشُ كَأَنَّهُ مُستَقْذِرٌ لَهُمْ، وَهَذَانِ قَدْ جَهِلَا مَا أَدَّبَ اللهُ بِهِ نَبِيَّهُ ﷺ حِينَ قَالَ: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء:٢١٥].

الثَّالِثَةُ: أَنْ يُظْهِرَ الْكِبْرَ بِلِسَانِهِ، كَالدَّعَاوَىٰ وَالْمُفَاخَرَةِ، وَتَزْكِيَةِ النَّفْسِ، وَحِكَايَاتِ الْأَحْوَالِ فِي مَعْرِضِ الْمُفَاخَرَةِ لِغَيْرِهِ.

وَاعْلَمْ أَنَّ التَّكَبُّرَ يَظْهَرُ فِي شَمَائِلِ الْإِنْسَانِ؛ كَصَعَرِ[1] وَجْهِهِ، وَنَظَرِهِ شَزْرًا، وَإِطْرَاقِ رَأْسِهِ، وَجُلُوسِهِ مُتَرَبِّعًا وَمُتَّكِئًا، وَفِي أَقْوَالِهِ، حَتَّىٰ فِي صَوْتِهِ وَنَغَمَتِهِ، وَصِيغَةِ إِيرَادِهِ الْكَلَامَ، وَيَظْهَرُ ذَلِكَ أَيْضًا فِي مَشْيِهِ وَتَبَخْتُرِهِ وَقِيَامِهِ وَقُعُودِهِ وَحَرَكَاتِهِ وَسَكَنَاتِهِ وَسَائِرِ تَقَلُّبَاتِهِ»[2].

*** الْكِبْرُ بِالْعِلْمِ:**

مَا بِهِ يَتَكَبَّرُ الْمُتَكَبِّرُ عَلَىٰ غَيْرِهِ كَثِيرٌ، مِنْهُ: الْعِلْمُ، وَمِنْهُ: الْعَمَلُ وَالْعِبَادَةُ، وَمِنْهُ: الصُّورَةُ الظَّاهِرَةُ مِنْ جَمَالٍ وَحُسْنِ هَيْئَةٍ.

«وَالْكِبْرُ بِالْعِلْمِ، هُوَ أَعْظَمُ الْآفَاتِ وَأَغْلَبُ الْأَدْوَاءِ[3] وَأَبْعَدُهَا عَنْ قَبُولِ

---

(١) الصَعَرُ: مَيْلٌ فِي الْوَجْهِ، وَقِيلَ: الصَّعَرُ: الْمَيْلُ فِي الْخَدِّ خَاصَّةً، وَقَدْ صَعَّرَ خَدَّهُ وَصَاعَرَهُ: أَمَالَهُ مِنَ الْكِبْرِ. [«لِسَانُ الْعَرَبِ» (صعر) (ص٢٤٤٧)].

(٢) «مُخْتَصَرُ مِنْهَاجِ الْقَاصِدِينَ» (ص٢٩٢).

(٣) الْأَدْوَاءُ: جَمْعُ دَاءٍ.

الْعِلَاجِ إِلَّا بِشِدَّةٍ شَدِيدَةٍ وَجَهْدٍ جَهِيدٍ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ قَدْرَ الْعِلْمِ عَظِيمٌ عِنْدَ اللهِ، عَظِيمٌ عِنْدَ النَّاسِ، وَهُوَ أَعْظَمُ مِنْ قَدْرِ الْمَالِ وَالْجَمَالِ وَغَيْرِهِمَا، بَلْ لَا قَدْرَ لَهُمَا أَصْلًا إِلَّا إِذَا كَانَ مَعَهُمَا عِلْمٌ وَعَمَلٌ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ كَعْبُ الْأَحْبَارِ: إِنَّ لِلْعِلْمِ طُغْيَانًا كَطُغْيَانِ الْمَالِ، وَقَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: الْعَالِمُ إِذَا زَلَّ زَلَّ بِزَلَّتِهِ عَالَمٌ.

وَلَنْ يَقْدِرَ الْعَالِمُ عَلَىٰ دَفْعِ الْكِبْرِ إِلَّا بِمَعْرِفَةِ أَمْرَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ حُجَّةَ اللهِ عَلَىٰ أَهْلِ الْعِلْمِ آكَدُ، وَأَنَّهُ يُحْتَمَلُ مِنَ الْجَاهِلِ مَا لَا يُحْتَمَلُ عُشْرُهُ مِنَ الْعَالِمِ، فَإِنَّ مَنْ عَصَىٰ اللهَ تَعَالَىٰ عَنْ مَعْرِفَةٍ وَعِلْمٍ فَجِنَايَتُهُ أَفْحَشُ؛ إِذْ لَمْ يَقْضِ حَقَّ نِعْمَةِ اللهِ عَلَيْهِ فِي الْعِلْمِ.

الْأَمْرُ الثَّانِي: أَنَّ الْعَالِمَ يَعْرِفُ أَنَّ الْكِبْرَ لَا يَلِيقُ إِلَّا بِاللهِ ﷻ وَحْدَهُ، وَأَنَّهُ إِذَا تَكَبَّرَ صَارَ مَمْقُوتًا عِنْدَ اللهِ بَغِيضًا، وَقَدْ أَحَبَّ اللهُ مِنْهُ أَنْ يَتَوَاضَعَ وَقَالَ لَهُ: إِنَّ لَكَ عِنْدِي قَدْرًا مَا لَمْ تَرَ لِنَفْسِكَ قَدْرًا، فَإِنْ رَأَيْتَ لِنَفْسِكَ قَدْرًا فَلَا قَدْرَ لَكَ عِنْدِي، فَلَا بُدَّ وَأَنْ يُكَلِّفَ نَفْسَهُ مَا يُحِبُّهُ مَوْلَاهُ مِنْهُ»[1].

*** الْفَرْقُ بَيْنَ الْكِبْرِ وَالْعُجْبِ:**

«الْكِبْرُ خُلُقٌ بَاطِنٌ تَصْدُرُ عَنْهُ أَعْمَالٌ هِيَ ثَمَرَتُهُ، فَيَظْهَرُ عَلَىٰ الْجَوَارِحِ، وَذَلِكَ الْخُلُقُ هُوَ رُؤْيَةُ النَّفْسِ عَلَىٰ الْمُتَكَبَّرِ عَلَيْهِ، يَعْنِي يَرَىٰ نَفْسَهُ فَوْقَ الْغَيْرِ فِي صِفَاتِ الْكَمَالِ فَعِنْدَ ذَلِكَ يَكُونُ مُتَكَبِّرًا.

---

(١) «تَهْذِيبُ الْإِحْيَاءِ» (٢/ ١٣٦).

www.menhag-un.com

وَبِهَذَا يَنْفَصِلُ عَنِ الْعُجْبِ، فَإِنَّ الْعُجْبَ لَا يَسْتَدْعِي غَيْرَ الْمُعْجَبِ، حَتَّىٰ لَوْ قُدِّرَ أَنْ يُخْلَقَ الْإِنْسَانُ وَحْدَهُ تُصُوِّرَ أَنْ يَكُونَ مُعْجَبًا، وَلَا يُتَصَوَّرُ أَنْ يَكُونَ مُتَكَبِّرًا، إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَعَ غَيْرِهِ وَهُوَ يَرَىٰ نَفْسَهُ فَوْقَهُ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ مَتَىٰ رَأَىٰ نَفْسَهُ بِعَيْنِ الِاسْتِعْظَامِ حَقَرَ مَنْ دُونَهُ وَازْدَرَاهُ، وَصِفَةُ هَذَا الْمُتَكَبِّرِ أَنْ يَنْظُرَ إِلَىٰ الْعَامَّةِ كَأَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَىٰ الْحَمِيرِ؛ اسْتِجْهَالًا وَاسْتِحْقَارًا»(١).

«وَالْعُجْبُ يَدْعُو إِلَىٰ الْكِبْرِ؛ لِأَنَّهُ أَحَدُ أَسْبَابِهِ، فَيَتَوَلَّدُ مِنَ الْعُجْبِ الْكِبْرُ، وَمِنَ الْكِبْرِ الْآفَاتُ الْكَثِيرَةُ الَّتِي لَا تَخْفَىٰ، وَهَذَا مَعَ الْخَلْقِ.

وَأَمَّا مَعَ اللهِ تَعَالَىٰ، فَالْعُجْبُ يَدْعُو إِلَىٰ نِسْيَانِ الذُّنُوبِ وَإِهْمَالِهَا، فَبَعْضُ ذُنُوبِهِ لَا يَذْكُرُهَا وَلَا يَتَفَقَّدُهَا؛ لِظَنِّهِ أَنَّهُ مُسْتَغْنٍ عَنْ تَفَقُّدِهَا فَيَنْسَاهَا، وَمَا يَتَذَكَّرُهُ مِنْهَا فَيَسْتَصْغِرُهُ، وَلَا يَسْتَعْظِمُهُ، فَلَا يَجْتَهِدُ فِي تَدَارُكِهِ أَوْ تَلَافِيهِ، بَلْ يَظُنُّ أَنَّهُ يُغْفَرُ لَهُ.

وَأَمَّا الْعِبَادَاتُ وَالْأَعْمَالُ فَإِنَّهُ يَسْتَعْظِمُهَا وَيَتَبَجَّحُ بِهَا، وَيَمُنُّ عَلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ بِفِعْلِهَا، وَيَنْسَىٰ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْهِ بِالتَّوْفِيقِ وَالتَّمْكِينِ مِنْهَا، ثُمَّ إِذَا أُعْجِبَ بِهَا عَمِيَ عَنْ آفَاتِهَا، وَمَنْ لَمْ يَتَفَقَّدْ آفَاتِ الْأَعْمَالِ كَانَ أَكْثَرُ سَعْيِهِ ضَائِعًا، فَإِنَّ الْأَعْمَالَ الظَّاهِرَةَ إِذَا لَمْ تَكُنْ خَالِصَةً نَقِيَّةً مِنَ الشَّوَائِبِ قَلَّمَا تَنْفَعُ، وَإِنَّمَا يَتَفَقَّدُ مَنْ يَغْلِبُ عَلَيْهِ الْإِشْفَاقُ وَالْخَوْفُ دُونَ الْعُجْبِ.

---

(١) «مُخْتَصَرُ مِنْهَاجِ الْقَاصِدِينَ» (ص٢٩١).

www.menhag-un.com

وَالْمُعْجَبُ يَغْتَرُّ بِنَفْسِهِ وَبِرَأْيِهِ، وَيَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ وَعَذَابَهُ، وَيَظُنُّ أَنَّهُ عِنْدَ اللهِ بِمَكَانٍ، وَأَنَّ لَهُ عِنْدَ اللهِ مِنَّةً وَحَقًّا بِأَعْمَالِهِ الَّتِي هِيَ نِعْمَةٌ مِنْ نِعَمِهِ، وَعَطِيَّةٌ مِنْ عَطَايَاهُ، وَيُخْرِجُهُ الْعُجْبُ إِلَىٰ أَنْ يُثْنِيَ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَيَحمَدُهَا وَيُزَكِّيهَا.

وَإِنْ أُعْجِبَ بِرَأْيِهِ وَعَمَلِهِ مَنَعَ ذَلِكَ مِنَ الِاسْتِفَادَةِ، وَمِنَ الِاسْتِشَارَةِ وَالسُّؤَالِ، فَيَسْتَبِدُّ بِنَفْسِهِ وَرَأْيِهِ، وَيَسْتَنْكِفُ مِنْ سُؤَالِ مَنْ هُوَ أَعْلَمُ مِنْهُ، وَرُبَّمَا يُعْجَبُ بِالرَّأْيِ الْخَطَأِ الَّذِي خَطَرَ لَهُ فَيَفْرَحُ بِكَوْنِهِ مِنْ خَوَاطِرِهِ، وَلَا يَفْرَحُ بِخَوَاطِرِ غَيْرِهِ فَيُصِرُّ عَلَيْهِ، وَلَا يَسْمَعُ نُصْحَ نَاصِحٍ، وَلَا وَعْظَ وَاعِظٍ، بَلْ يَنْظُرُ إِلَىٰ غَيْرِهِ بِعَيْنِ الِاسْتِجْهَالِ، وَيُصِرُّ عَلَىٰ خَطَئِهِ، فَإِنْ كَانَ رَأْيُهُ فِي أَمْرٍ دُنْيَوِيٍّ فَيَخْفُقُ فِيهِ، وَإِنْ كَانَ فِي أَمْرٍ دِينِيٍّ لَاسِيَّمَا فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِأُصُولِ الْعَقَائِدِ فَيَهْلِكَ بِهِ.

وَمِنْ أَعْظَمِ آفَاتِهِ أَنْ يَفْتُرَ فِي السَّعْيِ، لِظَنِّهِ أَنَّهُ قَدْ فَازَ، وَأَنَّهُ قَدِ اسْتَغْنَىٰ، وَهُوَ الْهَلَاكُ الصَّرِيحُ الَّذِي لَا شُبْهَةَ فِيهِ»[1].

*** الْفَرْقُ بَيْنَ الصِّيَانَةِ وَالْكِبْرِ:**

هُنَاكَ فَرْقٌ دَقِيقٌ بَيْنَ صِيَانَةِ النَّفْسِ عَمَّا يَشِينُهَا، وَالتَّكَبُّرِ وَالْعُجْبِ.

وَقَدْ جَلَّاهُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ بِقَوْلِهِ: «الْفَرْقُ بَيْنَ الصِّيَانَةِ وَالتَّكَبُّرِ: أَنَّ الصَّائِنَ لِنَفْسِهِ بِمَنْزِلَةِ رَجُلٍ قَدْ لَبِسَ ثَوْبًا جَدِيدًا نَقِيَّ الْبَيَاضِ ذَا ثَمَنٍ، فَهُوَ يَدْخُلُ بِهِ عَلَىٰ

(١) «تَهْذِيبُ الْإِحْيَاءِ» (٢/ ١٣٨).

الْمُلُوكِ فَمَنْ دُونَهُمْ، فَهُوَ يَصُونُهُ عَنِ الْوَسَخِ وَالْغُبَارِ وَالطُّبُوعِ[١] وَأَنْوَاعِ الْآثَارِ إِبْقَاءً عَلَىٰ بَيَاضِهِ وَنَقَائِهِ، فَتَرَاهُ صَاحِبَ تَعَزُّزٍ وَهُرُوبٍ مِنَ الْمَوَاضِعِ الَّتِي يَخْشَىٰ مِنْهَا عَلَيْهِ التَّلَوُّثَ فَلَا يَسْمَحُ بِأَثَرٍ وَلَا طَبَعٍ وَلَا تَلَوُّثٍ يَعْلُو ثَوْبَهُ.

وَإِنْ أَصَابَهُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ عَلَىٰ غِرَّةٍ -أَيْ: فَجْأَةً- بَادَرَ إِلَىٰ قَلْعِهِ وَإِزَالَتِهِ وَمَحْوِ أَثَرِهِ، وَهَكَذَا الصَّائِنُ لِقَلْبِهِ وَدِينِهِ تَرَاهُ يَتَجَنَّبُ طُبُوعَ الذُّنُوبِ وَآثَارَهَا، فَإِنَّ لَهَا فِي الْقَلْبِ طُبُوعًا وَآثَارًا أَعْظَمُ مِنَ الطُّبُوعِ الْفَاحِشَةِ فِي الثَّوْبِ النَّقِيِّ الْبَيَاضِ، وَلَكِنَّ عَلَىٰ الْعُيُونِ غِشَاوَةً أَنْ تُدْرِكَ تِلْكَ الطُّبُوعَ.

فَتَرَاهُ يَهْرُبُ مِنَ مَظَانِّ التَّلَوُّثِ، وَيَحْتَرِسُ مِنَ الْخَلْقِ، وَيَتَبَاعَدُ مِنْ مُخَالَطَتِهِمْ؛ مَخَافَةَ أَنْ يَحْصُلَ لِقَلْبِهِ مَا يَحْصُلُ لِلثَّوْبِ الَّذِي يُخَالِطُ الدَّبَّاغِينَ وَالذَّبَّاحِينَ وَالطَّبَّاخِينَ وَغَيْرَهُمْ.

بِخِلَافِ صَاحِبِ الْعُلُوِّ، فَإِنَّهُ -وَإِنْ شَابَهُ هَذَا فِي تَحَرُّزِهِ وَتَجَنُّبِهِ- فَهُوَ يَقْصِدُ أَنْ يَعْلُوَ رِقَابَهُمْ وَيَجْعَلَهُمْ تَحْتَ قَدَمَيْهِ، فَهَذَا لَوْنٌ وَذَاكَ لَوْنٌ»[٢].

وَقَدْ كَانَ إِمَامُ الْعُلَمَاءِ وَقُدْوَةُ السَّالِكِينَ وَأُسْوَةُ الْمُؤْمِنِينَ نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ ﷺ، أَشَدَّ النَّاسِ تَوَاضُعًا عَلَىٰ عُلُوِّ مَنْصِبِهِ وَرِفْعَةِ قَدْرِهِ.

---

(١) الطُّبُوعُ: جَمْعُ طَبَعٍ. وَالطَّبْعُ بِالسُّكُونِ: الْخَتْمُ، وَبِالتَّحْرِيكِ: الدَّنَسُ، وَأَصْلُهُ مِنَ الْوَسَخِ وَالدَّنَسِ يَغْشَيَانِ السَّيْفَ.

(٢) «الرُّوحُ» لِابْنِ الْقَيِّمِ (ص٣١٧).

عَنِ الْأَسْوَدِ بْنِ يَزِيدَ قَالَ: «سُئِلَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: مَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَصْنَعُ فِي بَيْتِهِ؟ قَالَتْ: كَانَ يَكُونُ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ -يَعْنِي: خِدْمَةِ أَهْلِهِ- فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ، خَرَجَ إِلَىٰ الصَّلَاةِ». رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(١).

وَعَنْ أَبِي رِفَاعَةَ تَمِيمِ بْنِ أُسَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «انْتَهَيْتُ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ يَخْطُبُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، رَجُلٌ غَرِيبٌ جَاءَ يَسْأَلُ عَنْ دِينِهِ لَا يَدْرِي مَا دِينُهُ؟ فَأَقْبَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَتَرَكَ خُطْبَتَهُ حَتَّىٰ انْتَهَىٰ إِلَيَّ، فَأُتِيَ بِكُرسِيٍّ، فَقَعَدَ عَلَيهِ، وَجَعَلَ يُعَلِّمُنِي مِمَّا عَلَّمَهُ اللهُ، ثُمَّ أَتَىٰ خُطْبَتَهُ، فَأَتَمَّ آخِرَهَا» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٢).

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّهُ مَرَّ عَلَىٰ صِبْيَانٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ وَقَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَفْعَلُهُ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٣).

وَقَدْ كَانَ قَانُونُ السَّلَفِ الَّذِي يَحْكُمُهُمْ، وَيَهْتَدُونَ بِنُورِهِ، الِالْتِزَامَ بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ الَّذِي رَوَاهُ عِيَاضُ بْنُ حِمَارٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «**إِنَّ اللهَ أَوْحَىٰ إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا؛ حَتَّىٰ لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَىٰ أَحَدٍ، وَلَا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَىٰ أَحَدٍ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٤).

وَهَذَا أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُؤْثِرُ أَنْ يَكُونَ مَعَ ضِعَافِ النَّاسِ وَصَعَالِيكِهِمْ،

---

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٦٤٤).

(٢) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٨٧٦).

(٣) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٥٨٩٣)، وَمُسْلِمٌ (٢١٦٨).

(٤) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٨٤٦).

وَلَا يُحْتَفَلُ بِهِ، وَلَا يُؤْبَهُ لَهُ، وَهُوَ مَنْ هُوَ؟!

أَخْرَجَ مُسْلِمٌ بِسَنَدِهِ عَنْ أُسَيْرِ بْنِ جَابِرٍ قَالَ: «كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ إِذَا أَتَىٰ عَلَيْهِ أَمْدَادُ أَهْلِ الْيَمَنِ سَأَلَهُمْ: أَفِيكُمْ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ؟ حَتَّىٰ أَتَىٰ عَلَىٰ أُوَيْسٍ فَقَالَ: أَنْتَ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: مِنْ مُرَادٍ ثُمَّ مِنْ قَرَنٍ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَكَانَ بِكَ بَرَصٌ فَبَرَأْتَ مِنْهُ إِلَّا مَوْضِعَ دِرْهَمٍ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: لَكَ وَالِدَةٌ؟ قَالَ: نَعَمْ.

قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**يَأْتِي عَلَيْكُمْ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ مَعَ أَمْدَادِ أَهْلِ الْيَمَنِ، مِنْ مُرَادٍ ثُمَّ مِنْ قَرَنٍ، كَانَ بِهِ بَرَصٌ فَبَرَأَ مِنْهُ إِلَّا مَوْضِعَ دِرْهَمٍ، لَهُ وَالِدَةٌ هُوَ بِهَا بَرٌّ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَىٰ اللهِ لَأَبَرَّهُ، فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَكَ فَافْعَلْ**». فَاسْتَغْفِرْ لِي. فَاسْتَغْفَرَ لَهُ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: الْكُوفَةَ. قَالَ: أَلَا أَكْتُبُ لَكَ إِلَىٰ عَامِلِهَا؟ قَالَ: أَكُونُ فِي غَبْرَاءِ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيَّ»(١).

وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه قَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ خَيْرَ التَّابِعِينَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ أُوَيْسٌ وَلَهُ وَالِدَةٌ وَكَانَ بِهِ بَيَاضٌ فَمُرُوهُ فَلْيَسْتَغْفِرْ لَكُمْ**».

قَالَ النَّوَوِيُّ رحمه الله: «قَوْلُهُ ﷺ: «**إِنَّ خَيْرَ التَّابِعِينَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ أُوَيْسٌ**». ذَا

(١) «مُسْلِمٌ» (٢٤٥٢)، وَغَبْرَاءُ النَّاسِ أَيْ: ضِعَافُهُمْ وَصَعَالِيكُهُمْ، وَأَخْلَاطُهُمُ الَّذِينَ لَا يُؤْبَهُ لَهُمْ.

صَرِيحٌ فِي أَنَّهُ خَيْرُ التَّابِعِينَ، وَقَدْ يُقَالُ: قَدْ قَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَغَيْرُهُ: أَفْضَلُ التَّابِعِينَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ، وَالْجَوَابُ أَنَّ مُرَادَهُمْ أَنَّ سَعِيدًا أَفْضَلُ فِي الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ كَالتَّفْسِيرِ وَالْحَدِيثِ وَالْفِقْهِ وَنَحْوِهَا، لَا فِي الْخَيْرِ عِنْدَ اللهِ تَعَالَىٰ.

قَوْلُهُ: «**أَمْدَادِ أَهْلِ الْيَمَنِ**»: هُمُ الْجَمَاعَةُ الْغُزَاةُ الَّذِينَ يَمُدُّونَ جُيُوشَ الْإِسْلَامِ فِي الْغَزْوِ، وَاحِدُهُمْ مَدَدٌ.

قَوْلُهُ: «أَكُونُ فِي غَبْرَاءِ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيَّ»؛ أَيْ: ضِعَافِهِمْ وَصَعَالِيكِهِمْ وَأَخْلَاطِهِمُ الَّذِينَ لَا يُؤْبَهُ لَهُمْ، وَهَذَا مِنْ إِيثَارِ الْخُمُولِ وَكَتْمِ حَالِهِ»[1].

وَالْكِبْرُ وَالْعُجْبُ مِنْ رَوْعَاتِ نَفْسٍ تَنْسَىٰ أَنَّ مَا بِهَا مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ، وَأَنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ، وَالْعِلْمُ الصَّحِيحُ وَالِاهْتِدَاءُ بِالْهُدَىٰ الْمُسْتَقِيمِ حَرْبٌ لِتِلْكَ الرَّذَائِلِ مِنَ الْكِبْرِ وَالْعُجْبِ وَالصَّلَفِ وَالْغُرُورِ؛ لِأَنَّهُ «إِذَا تَمَّ عِلْمُ الْإِنْسَانِ؛ لَمْ يَرَ لِنَفْسِهِ عَمَلًا، وَإِنَّمَا يَرَىٰ إِنْعَامَ الْمُوَفِّقِ لِذَلِكَ الْعَمَلِ، الَّذِي يَمْنَعُ الْعَاقِلَ أَنْ يَرَىٰ لِنَفْسِهِ عَمَلًا أَوْ يُعْجَبَ بِهِ، وَذَلِكَ بِأَشْيَاءَ:

مِنْهَا: أَنَّهُ وَفَّقَ لِذَلِكَ الْعَمَلِ: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات:٧].

وَمِنْهَا: أَنَّهُ إِذَا قِيسَ بِالنِّعَمِ لَمْ يَفِ بِمِعْشَارِ عُشْرِهَا.

وَمِنْهَا: أَنَّهُ إِذَا لُوحِظَتْ عَظَمَةُ الْمَخْدُومِ، احْتُقِرَ كُلُّ عَمَلٍ وَتَعَبُّدٍ.

---

(١) «صَحِيحُ مُسْلِمٍ بِشَرْحِ النَّوَوِيِّ» (١٦/ ٩٥).

هَذَا إِذَا سَلِمَ مِنْ شَائِبَةٍ، وَخَلَصَ مِنْ غَفْلَةٍ، فَأَمَّا وَالْغَفْلَاتُ تُحِيطُ بِهِ؛ فَيَنْبَغِي أَنْ يَغْلُبَ الْحَذَرُ مِنْ رَدِّهِ، وَيَخَافَ الْعِتَابَ عَلَىٰ تَقْصِيرِهِ فِيهِ، فَيَشْتَغِلُ عَنِ النَّظَرِ إِلَيْهِ.

وَتَأَمَّلْ عَلَىٰ الْفُطَنَاءِ أَحْوَالَهُمْ فِي ذَلِكَ، فَالْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ قَالُوا: مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ.

وَالْخَلِيلُ عليه السلام **يَقُولُ**: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي﴾ [الشعراء:٨٢]، وَمَا أَدَلَّ بِتَصَبُّرِهِ عَلَىٰ النَّارِ وَتَسْلِيمِهِ الْوَلَدَ إِلَىٰ الذَّبْحِ.

وَرَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَا مِنْكُمْ مَنْ يُنْجِيهِ عَمَلُهُ**»، قَالُوا: وَلَا أَنْتَ؟ قَالَ: «**وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحْمَتِهِ**»(١).

وَأَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه **يَقُولُ**: وَهَلْ أَنَا وَمَالِي إِلَّا لَكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟

وَعُمَرُ رضي الله عنه **يَقُولُ**: لَوْ أَنَّ لِي طِلَاعَ الْأَرْضِ؛ لَافْتَدَيْتُ بِهَا مِنْ هَوْلِ مَا أَمَامِي قَبْلَ أَنْ أَعْلَمَ مَا الْخَبَرُ.

وَابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه يَقُولُ: لَيْتَنِي إِذَا مِتُّ لَا أُبْعَثُ.

وَعَائِشَةُ رضي الله عنها تَقُولُ: لَيْتَنِي كُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا.

وَهَذَا شَأْنُ الْعُقَلَاءِ -فَرَضِيَ اللهُ عَنِ الْجَمِيعِ-.

---

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٦٠٩٨)، وَمُسْلِمٌ (٢٨١٦).

وَلَوْلَا عِزَّةُ الْفَهْمِ مَا تَكَبَّرَ مُتَكَبِّرٌ عَلَىٰ جِنْسِهِ، وَلَكَانَ كُلُّ خَامِلٍ خَائِفًا مُحْتَقِرًا، حَذِرًا مِنَ التَّقْصِيرِ فِي شُكْرِ مَا أُنعِمَ عَلَيْهِ بِهِ.

وَفَهْمُ هَذَا الْمَشْرُوحِ يُنَكِّسُ رَأْسَ الْكِبْرِ، وَيُوجِبُ مُسَاكَنَةَ الذُّلِّ، فَتَأَمَّلْهُ فَإِنَّهُ أَصْلٌ عَظِيمٌ»(١).

وَيَكْفِي الْعَالِمَ شَرَفًا مَا فِي الْعِلْمِ مِنْ شَرَفٍ، وَيَكْفِيهِ عِزًّا مَا فِيهِ مِنْ عِزٍّ.

قَالَ أَبُو مَرْوَانَ الطُّبَنِيُّ:

إِنِّي إِذَا احْتَوَشَتْنِي(٢) أَلْفُ مَحْبَرَةٍ ... يَكْتُبْنَ: حَدَّثَنِي طَوْرًا، وَأَخْبَرَنِي
نَادَتْ بِحَضْرَتِيَ الْأَقْلَامُ مُعْلِنَةً ... هَذِي الْمَفَاخِرُ لَا قَعْبَانِ مِنْ لَبَنِ

وَعَلَىٰ الْجُمْلَةِ؛ فَمَا تَحَلَّىٰ الْعَالِمُ بِحِلْيَةٍ أَجْمَلَ، وَلَا ارْتَدَىٰ حُلَّةً أَفْخَرَ مِنَ التَّوَاضُعِ، وَمَا تَرَدَّىٰ بِرِدَاءٍ أَحْقَرَ، وَلَا تَزَيَّا بِزِيٍّ أَسْوَأَ مِنَ الْكِبْرِ وَالْعُجْبِ.

لِذَلِكَ وَصَّىٰ عُمَرُ رضي الله عنه أَهْلَ الْعِلْمِ بِالتَّوَاضُعِ لِلْمُعَلِّمِ وَالْمُتَعَلِّمِ سَوَاءً، وَهِيَ نَصِيحَةٌ غَالِيَةٌ، فَاجْعَلْهَا مِنْكَ عَلَىٰ ذُكْرٍ أَبَدًا.

قَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: «تعَلَّمُوا الْعِلْمَ وَعَلِّمُوهُ النَّاسَ، وَتَعَلَّمُوا لَهُ الْوَقَارَ وَالسَّكِينَةَ، وَتَوَاضَعُوا لِمَنْ تَعَلَّمْتُمْ مِنْهُ، وَلِمَنْ عَلَّمْتُمُوهُ، وَلَا تَكُونُوا جَبَابِرَةَ الْعُلَمَاءِ، فَلَا

(١) «صَيْدُ الْخَاطِرِ» (ص٤٧٢).
(٢) احْتَوَشَ الْقَوْمُ الشَّيْءَ: أَحَاطُوا بِهِ وَجَعَلُوهُ وَسْطَهُمْ.

www.menhag.com

يَقُومُ جَهْلُكُمْ بِعِلْمِكُمْ»(١).

وَكَانَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ -عَلَىٰ جَلَالَتِهِ وَإِمَامَتِهِ- مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ تَوَاضُعًا.

قَالَ عَارِمٌ أَبُو النُّعْمَانِ: «وَضَعَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ عِنْدِي نَفَقَتَهُ، فَكَانَ يَجِيءُ فَيَأْخُذُ مِنْهَا حَاجَتَهُ، فَقُلْتُ لَهُ يَوْمًا: يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، بَلَغَنِي أَنَّكَ مِنَ الْعَرَبِ، فَقَالَ: يَا أَبَا النُّعْمَانِ، نَعَمْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسَاكِينُ، فَلَمْ يَزَلْ يُدَافِعُنِي حَتَّىٰ خَرَجَ، وَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا».

وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الْمَرْوَذِيُّ: «قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللهِ: إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ يُدْعَىٰ لَكَ فِي جَمِيعِ الْأَمْصَارِ، فَقَالَ: يَا أَبَا بَكْرٍ، إِذَا عَرَفَ الرَّجُلُ نَفْسَهُ فَمَا يَنْفَعُهُ كَلَامُ النَّاسِ؟!!».

❁ ❁ ❁

(١) «جَامِعُ بَيَانِ الْعِلْمِ» (١/ ١٣٥).